ولم اختصر مـــــا قلـــــت إلاّ لأننـــــي
اعبر عما لا يقـــــــوم بـــــــه الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت:وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فـــدتـــك القلـــوب بـــألبـــابها
وســـاح الملـــوك بـــأربـــابها
كتـــائب تـــرمـــي جنـــود الصليـــ
ـــب منهـــا بتقطيـــع أصـــلابها
إذا مـــا انثنـــت مـــن قـــراع الكما
ة كسـت وفـــدهـــا وشي أســـلابها
تبرنـــس منهـــا البرنـــس الثيـــا
ب وحلتـــه مـــن وقـــع احـــلابها
عشيـــة غصـــت على إنـــب
نفـــوس النصـــارى بغصـــابها
وقـــام لأحمد محمـــودهـــا
بجـــذع مـــوازن أحـــزابها

تجلى لها حيـــــــدري المصـــــــاع
أغلـــــب مـــــود بغـــــلابها
مـــــورث أركـــــاسهـــــا مـــــن أب
أكـــــول الفـــــوارس شرابها
همام إذا أعصـــــوصبـــــت نبـــــوة
دهـــــاهـــــا بها شـــــم أعصـــــابها
مضـــــى وجنـــــى لـــــك حلـــــو الشهـــــا
دمـــــا تمطـــــق مـــــن صـــــابها
وأوصـــــى بها لـــــك مـــــن بعـــــدمـــــا
تجرّع ممقـــــــــر أو صـــــــابها
واقســـــم جـــــدّك أن لا يليـــــــ
ـــــــق بغيرك ملبـــــس أثـــــوابها
صبحـــــت دمشـــــق بمشـــــق الجيـــــاد
زبـــــور الـــــوغـــــى بين أحـــــدابها
واصلـــــت رأيـــــك قبـــــل الحســـــا
م مخمـــــــــد جمرة أجـــــــلابها
فـــــأعطتـــــك مـــــا لم تنلـــــه يـــــد
وفـــــازت رقـــــاك بـــــأصحـــــابها
وأنـــــت تصرف فضـــــل الـــــزمـــــا
م مـــــن حمص تـــــأخير ركـــــابها
تخوّنها الجور فـــــاستـــــدركـــــت
بعـــــدلـــــك أغبـــــار ظبظـــــابها
وفـــــاجـــــأت قـــــورس بـــــالشـــــائلات
تمج القنـــــا ســـــم اذنـــــابها
فما رمـــــت حتـــــى رمـــــت بيضهـــــا
إليـــــك أزمـــــة ضرابها
وعـــــزت عـــــزاز فـــــاذللتهـــــا
بمجـــــرى مضيـــــق لاسهـــــابها

باشمخ من أنفها منكبا
وأكثر من عدّطورابها
دلفت لعيطا أم النجو
م في الأمرايطناء أترابها
وعذرا مذ عمرت ما اهتدت
ظنون الليالي لاحزابها
تفرعتها بفروع الوشـ
ـيج مثمرة هام أوشابها
وعوج إذا انبضت اغمضت
ذكاء لارسال نشابها
ومحدود بات تطير الخطوب
ملافظ ألسن خطابها
تصوّب عقبان ريب المنون
متى بنتها باعقابها
ومار كعت حول شم الهضا
ب الاسجدن لانصابها
فلاذت بمعتصم بالكتا
ب وهوب المهالك سلابها
بمعتصمي الذرى والهدى
هموس السرى غير هيابها
محلى المحل بوصف الفتو
ح ووصف التهاني وأربابها
وتعجز مداحه أن يحيـ
ـط بآدابه فلك آدابها
بدائع لوردد هررمـ
ـين بنات حبيب باحبابها
وأين ابن أوس وآياته
من اللاء أودت بحسابها

من اللاء عاد عتيق لها
وردّ عليها ابن خطابها
فأيامه من حبور تكا
د يطير بها فرط إعجابها
لك الفضل إن راسلتك الجيا
د وقامت أدلة أنجابها
إذا أغتسقت همم الجائرين
أتيت السيادة من بابها
أبوك أبوها وأنت ابنها
العريق ودميه محرابها
أقول لمؤجره بالغرو
ر تمطت هواها فأهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو
ث تخشى صواعق الهابها
ولا تخدعوا بافترار الليو
ث فالنار في برد أنيابها

وبقي أطول من هذا:

فصل

في صفة أسر جوسلين

قال ابن الأثير: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها: تل باشر، وعين تاب، وعزاز، وغيرها من الحصون، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ولقوا نور الدين وكان بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السلاح فأنفذه إلى

السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الأعمال، وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد انفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلا وإما أسراً، فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهراً وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر لايقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره وحاق به مكره (ولايحيق المكر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب و،عزاز وقورس ،والراوندان ،وحصن البارة، وتل خالد،وكفر لاثا وكفر سود ،وحصن سرفوت بجبل بني عليم ،ودلوك ،ومرعش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصنا لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدر اضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ. السيف ما دونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فما مست ولا اسر تخاف ولا إصر

فان صافحت يمناك من بعد هجرها
فاحلى التلاقي ما تقدّمه هجر
وهل هي الا كالحصان تمنعت
دلالا وان عز الحياء وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها
فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسى بالكراديس عابثا
وأصبح عن باب الفراديس يفتر
على انها لو لم تجبك إنابة
لارهقها من بأسك الخوف والذعر
فاما وقفت الخيل ناقعة الصدى
على بردا من فوقها الورق النضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى
وأصدرتها والبيض من علق حمر
وجللتها نقعا أضاع شياتها
فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر
على النهر لما كاثر القصب القنا
مكاثرة في كل نحر لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدى
إلى ان جرى العاصي وضحضاحه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يد
لجابرها ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل
فمن بارز الابرنز كان له الفخر
ومن بز انطاكية من مليكها
أطاعته ألحاظ المؤللة الخزر
أخو الليث لولا غدرة نزعت به
إلى الذئب إن الذئب شيمته الغدر

أتـــى رأســـه ركضـــا وغـــودر شلـــوه
وليـــس ســـوى عـــاف في النســـور لـــه قبر
وقـــد كـــان في استبقـــائه لـــك منـــة
هـــي الفتـــك لـــو لم تغضـــب البيـــض والسمـــر

كما أهـــــدت الاقـــــدار للقمـــــص اسره
وأسعـــد قـــرن مـــن حـــواه لـــك الاسر
طغـــى وبغـــى عـــدوا على غلـــوائه
فـــأوبقـــه الكفـــران عـــدواه والكفـــر
والقـــت بـــأيـــديها إليـــك حصـــونـــه
ولـــو لم تجب طـــوعـــا لجاء بها القسر
وأمســـت عـــزاز كـــاسمهـــا بـــك عـــزة
تشـــق على النسريـــن لـــو أنها الـــوكـــر
فسر وامـــلأ الـــدنيـــا ضيـــاء وبهجـــة
فبـــا لافـــق الـــداجـــي إلى ذا السنـــا فقـــر
كـــأنـــي بهذا العـــزم لافـــل حـــده
وأقصـــاه بـــالأقصـــى وقـــد قضي الامـــر
وقـــد أصبـــح البيـــت المقـــدس طـــاهـــرا
وليـــس ســـوى جـــاري الـــدمـــاء لـــه طهـــر
وقـــد أدت البيـــض الحداد فـــروضهـــا
فـــلا عهـــدة في عنـــق سيـــف ولا نـــذر
وصلـــت بمعـــراج النبـــي صـــوارم
مســـاجـــدهـــا شفـــع وســـاجـــدهـــا وتـــر
وإن يتيمـــم ســـاحـــل البحـــر مـــالكـــا
فـــلا عجـــب أن يملـــك الســـاحـــل البحـــر
سللـــت سيـــوفـــا أثكلـــت كـــل بلـــدة
بصـــاحبهـــا حتـــى تخوّفـــك البـــدر
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في عـــزمـــاتـــه
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الفجـــر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـــت شـــم المنـــابـــر بـــاسمـــه
كما زهيـــت تيهـــا بـــه الأنجـــم الـــزهـــر

فيـــا كعبـــة مـــا زال في عـــرصـــاتها
مـــواســـم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـــلابـــس مـــن أعـــلامهـــا الحمـــد والشكـــر

وتـــوّجـــت ثغـــر الشـــأم منـــك جـــلالـــة
تمنـــت لهـــا بغـــداد لـــو أنهـــا الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بهـــا مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــا طـــا لما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـــت في الافـــرنـــج مـــن كـــان بـــأســـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـــت جـــرد الخيـــل أعلى حصـــونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـــات الحافظـــات فـــروجهـــا
فشـــاهـــدهـــا عـــدل ورائقهـــا سحـــر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســـوى أنهـــا مـــن بعـــد عمـــر الفتـــى عمـــر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا
ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة
يحامي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده
فإن فؤاد المرء مع من يحبه
وفي شعب الاكوار من هو عالم
غداة استطار البرق من طار لبه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنها
سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
إذا ما اسما في مبهم الخطب وجهه
تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى
منافسة أي الثلاثة تربه
يعدّ مضاء في الظبى لا وضربه
بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه
إلى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت
وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها
فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع
ملىّ برعي الهند وأنى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية
ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت
كوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه

وعاصي على العاصي بأرعن خاطب
دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه
بأنّب لما أكسب المال وانثنى
بصاحب أنطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه
وللرّمح حتى توّج الرأس قلبه
على حين للخطيّ فيه عوامل
يعاقبه خفض الحسام ونصبه
وقائع محمودية النصر لم تزل
غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده
وتفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه
مضى وهو نصل والممالك قربه
إلى أن دعته ربها كل بلدة
فليس من الأمصار ما لا يربه
ولما ترى بالقمص عجب هوى به
على أم رأس البغي والغدر عجبه
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه
بعيد على الرجلين في السعي قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه
فيا عانيا اضرب البشائر ضربه
تناجي عزاز باسمه تلّ باشر
فيلعنه لعن الصريح وسبه
فان يكن المقهور من ثل عرشه
فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه
فقل للملوك الخافقين نصيحة
كذا عن طريق الليث يزأر غلبه

وخلـــواعـــن الافـــاق فـــالشرق شرقـــه
بحكـــم الـــرديئيـــات والغـــرب غـــربـــه
ولا يعصـــم بـــالـــدرب طـــاغ على القنـــا
فـــإن القنـــا في ثغـــرة النحـــر دربـــه
رحيـــب فضـــاء الحلـــم عـــن ذات قـــدره
إذا ضـــاق مـــن صـــدر المملـــك رحبـــه
عفـــوّ عـــن الجاني يكـــاد الـــذي جنـــى
بكـــرّبـــه شـــوقـــا إلى العفو ذنبـــه
أمتخـــذ الاخـــلاص للّـــه جنـــة
ومـــن يعتصـــم بـــاللّـــه فـــاللّـــه حسبـــه
أبـــوك استردّ الشـــأم بـــالسيـــف عنـــوة
وللـــروم بـــأس طـــا لما غـــال خطبـــه
إذا ذب عـــن أضغـــاث دنيـــاه مـــالـــك
فـــانـــت الـــذي عـــن حـــوزة الـــديـــن ذبـــه
رأيـــت اتبـــاع الحق خير مغبـــة
فـــأفـــرجـــت عـــن رأي يسرك غبـــه
وأوضحـــت مـــا بين الفـــريقين سنـــة
بها عـــرف المربـــوب مـــن هـــو ربـــه
وبينـــت نـــور الـــديـــن مـــا كـــان يبتغـــي
دليـــلا بـــأن اللّـــه مـــن أنـــت حـــزبـــه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهـــات يعصـــم مـــن أردت حـــذار
أنـــى ومـــن أوهـــاقـــك الاقـــدار

ومنها:

طلعـــت عليـــك بجـــوسلين ذريعـــة
لاسحـــل انشـــاهـــا ولا امـــرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النـــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــف تحين الغـــدّار
عـــود أمـــرّ على ابـــارك طلعـــه
فـــاحيـــل ذاك البر وهـــو بـــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــا بنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــا جـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لامترف لاه ولا جبـــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا لـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــا كـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لاتـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــلء سريـــره اسرار

صـــاف إذا كـــدر المعـــادن عـــادل
إن حـــاف حكـــام الملـــوك وجـــاروا.
أعلى أبـــوه لـــه النجـــاد وشيـــد في
صهـــواتها ممـــا ابتنـــاه منـــار
محمـــود المحمـــود آثـــارا إذا
نظمـــت على جيـــد الـــدجى الاسمار
دانـــت لـــه الايـــام صـــاغـــرة كما
دانـــت لـــه ظلـــه الامصـــار

له من أخرى أوّلها:
مـــا الملـــك الا مـــا حـــواك نجـــاده

يقول فيها:
وتـــديـــن حســـده لمحكـــم آيـــة
والفضـــل مـــا شهـــدت بـــه حســـاده
شمـــس إذا مـــا الحرب زرجيـــوبها
حـــل المعـــاقـــد كـــرّه وطـــراده
ألـــوى ألـــدّ حمى الشريعـــة جهـــده
وأذل نـــاصيـــة الضـــلال جهـــاده
صعـــق البرنـــس وقـــد تـــلالأ بـــرقـــه
واطـــار ســـاكـــن جـــأشـــه ارعـــاده
ولى وقـــد سلـــت فسلـــت ضغنـــه
زبـــر تلقـــى فـــودهـــن فـــؤاده
مستلئما مستسلما لاعـــــــــــدّه
ردّ المنـــى عنـــه ولا استعـــداده
ولجوسلين احتثهـــن فـــاصبحـــت
نهبـــى لهن بـــلاده وتـــلاده
جـــاءت بـــه بعـــد الشماس عـــوابـــس
قـــود يلين لعنفهـــنّ قيـــاده

بـــه تصيـــد لـــك السعـــود وقلما
ينجـــو بخير مـــن أردت مصـــاده
دانـــى لـــه قينـــاه أدهـــم كلما
غنـــاه طـــار شماتـــه عـــوّاده
سلبـــت عـــزاز عـــزاءه وبقـــورس
محجـــوبـــة فـــرشـــت لـــه اقتـــاده
وبتـــل خـــالـــديـــوم تـــل جبينهـــا
خلـــط الثـــرى بجبينـــه اخـــلاده
وغـــدا يبـــاشر تـــل بـــاشر قلبـــه
بـــاحـــرّ مـــا حمل القلـــوب عـــداده
منـــت أمـــانيـــه بشـــائرك التـــي
عـــادت لهن مـــآثما أعيـــاده
وحبـــوت ملكـــك مـــن نظيـــم ثغـــوره
حليـــاتتـــايـــه تحتـــه أجيـــاده
لايخدعنـــك فـــانما اصـــلاح مـــن
يخشـــى انتشـــاط خنـــاقـــه افســـاده
أنـــزلـــه حيـــث قضـــت لـــه غـــدراتـــه
واحلـــه طغيـــانـــه وعنـــاده
في حيـــث لايـــأوي لـــه سبحـــانـــه
حنقـــا ويكشـــط جلـــده جـــلاده
وثـــن هـــدمـــت بنـــي الضـــلال بهدمـــه
وعـــدت عبـــادك عنـــوة عبـــاده
فتكـــت بـــه آيـــات مـــن لمحمـــد
ولـــديـــنـــه ابـــداؤه وعـــواده
او انشـــط البلـــد الحرام تـــواء مـــت
تثنـــي عليـــه تـــلاعـــه ووهـــاده
ولـــو ان منبره أطـــاق تكلما
نطقـــت بيـــاهـــر فضلـــه اعـــواده

نـــام الخليفة واستطـــال لـــذبـــه
عـــن ســـدتيـــه واستطير رقـــاده
رجعـــت لـــك العـــز القـــديـــم سيـــوفـــه
مـــازان رونـــق مـــائهـــا اغماده
مـــن بعـــد مـــا نعـــق الصليـــب لحزبـــه
ورأيـــت زرع الملـــك حـــان حصـــاده
انـــى تميـــل الحادثـــات رواقـــه
بهبـــوبها وابـــن العماد عماده

فصل

قال ابـن الاثير : لما سار نـور الديـن إلى قلاع جـوسلين ملك بعضـا، وأبقى بعضاً ، فـاجتمعت الفرنج فـالتقوا مع نور الـدين بدلوك فهـزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هـــي الخيـــل خير عتـــاد الكـــريـــم
يحضر للهـــم احضـــارهـــا
ضغمـــت فـــأدررت أفـــواههـــا
وسرت فقلمـــت أظفـــارهـــا
الام ولم تبـــق ممـــا غـــزو
ت قلـــوبـــا تكـــابـــد إذعـــارهـــا
أمـــا في مفصـــل آي القـــرا
ع أن تضـــع الحرب أوزارهـــا
عســـى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتـــوكـــر أوكـــارهـــا
ومـــا يـــوم مـــن غلتـــه واحـــد
فتـــودعـــه اللســـن أشعـــارهـــا
وأيـــن المقـــاول ممـــا فعلـــت
ولـــو شفـــع الفطـــراء كثـــارهـــا

فكم اجلبت خلفك الجافخا
ت (٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعدت بعصرك هذا الانيـ
ـق فتوح النبي واعصارها

وكان مهاجرها تابعيـ
ـك وانصار رأيك انصارها

فجدّدت اسلام سلما نها
وعمر جدك عمارها

ومايوم إنسب الاكتيـ
ـك بل طال بالبوع اشبارها

وأيامك الغر من بعده
يعيد إلى الطي اغرارها

ولما هبيت ببصرى سمكت
باهباء خيلك أبصارها

ويوم على الجون جون السرا
ة عز فسعطها عارها

صدمت عريمتها صدمة
أذابت مع الماء أحجارها

وفي تل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوارها

وإن دالكتهم دلوك فقد
شدّدت فصدقت أخبارها

وشب التدامر حتى طلعت
عليها فولتك أدبارها

مشاهد مشهورة نمنمت
على صفحة الدهر اسطارها

يلذ الاغاني ترجيعها
ويستسفر السفر أسفارها

بنيـــت لـــوفـــد المنـــى كعبـــة
تجير المعلـــــق استـــــارهـــــا
وملكـــــــــــت الاراضي مغبرة
تكـــــاد تحدّث أخبـــــارهـــــا
فمازلـــت تـــدجـــن حتـــى محو
ت دجـــاهـــا وشعشعـــث أنـــوارهـــا
وصلـــت فـــأعـــززت مسكينهـــا
وصلـــت فـــأذللـــت أبـــارهـــا
وصغـــت حلى مـــن عـــلاً أحكمـــت
على عنـــق الـــدهـــر أزرارهـــا

قال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الأفرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيام من محرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ويكون أبشع منها، وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمةوالأمتعة الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الأكثر، وسلم الاقل، وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصدور لهذه النازلة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق(ذلك تقدير العزيز العليم)(٦٠).

فصل

قال: وكان مجاهد الدين بزان قد توجه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله، فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، و توجهوا ولم يتعرض لشيء من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار، ووقوع الحرب وسفك الدماء إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيها في سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسن الحديث في الجدّ والهزل، وكان له يوم مشهود ودفن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا جيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستسعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي ادّ
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لاخبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يـــات العـــزيـــز ويقظـــة المستنصر
شمـــر فقـــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغـــايـــات غير مشمـــر
أولســـت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا لمعـــروف أنـــف المنكـــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــ
ـــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــر
يـــا هضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــر
آثـــارهـــم نجـــس اذال المسجـــد الـــ
ـــأقصى فصـــن مـــا دنســـوه وطهـــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــون وسيـــف البربـــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــ
ـــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـان غير مكـــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الآ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصـــائد أصبحـــت أبكـــارهـــا
في ظـــل ملكـــك غـــاليـــات الأمهـــر
إن كنـــــت أحييـــــت ابـــــن حمدان لها
فـــانـــا الـــذي غبرت في وجـــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نـــوّهـــوا
بـــاســـم ابـــن أوس واستخصـــوا البحتري
ذلـــت لـــدولتـــك الـــرقـــاب ولا تـــزل
ان تغـــز تغنـــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى ســـد ثلمـــة ملكـــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــا رمـــاه فتصرد
صـدمـت ابـن ذي اللغـديـن فـانحـل عقـده
وكـــالسلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـــا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــووس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبـــلاء مـــوكـــل
ولا بـــد مـــن يـــوم بـــه تتهـــوّد
وأقســـم مـــا ذاق اليهـــود بـــا يليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود
كبعـــض الـــذي جـــرّعتـــه فسرطتـــه[٦١]
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد

ولا يتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤبـــد
رمـــاك ببـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد
وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد
تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنما أنـــت مقعـــد
امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ـــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد
بمحمـــودا المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد
وهـــل يستـــوي ســـارتـــأســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد
تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعماً فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد
تخذت بنـــى الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفسدوا
لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ـــموالى وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد
إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مـــا مصر إلاّ بعـــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــــره تسعـــــى قماء وتحفـــــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـــه الصفح ديـــن واقبلـــوا النُصـــح ترشـــدوا
ولا تـــرشفـــوا نفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــاد وسمهـــا ليـــس يجحـــد
ولا تكفـــــروه إنما أنتـــــم لـــــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــد
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــوّز مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد
وأيقـــن مـــن بين السـديـــر وجـــاسـم
بـــان الحرار الســـود بـــالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـــدّ خيلـــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــالمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـاسيـف شـامتـه يـد الملـك صـارمـا
فيمهمـــد إذ يسري ويسري فيهمـــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القـــدس سرحـــة
ومـــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد
حموهـــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر محدّد
متـــى انـــاراء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:
نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتهار بعـــه ومقـــراهـــا
أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا
فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميـــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا
دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا
لابســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـابين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغـد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدى المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلَم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوّة ، وتقرّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ثم رحل عسكر الافرنج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم لعجزهم واختلافهم، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف إليهم من العرب في خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الأفرنج إلى لجاة حوران للاعتصام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقي، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر إليهم سرخاك واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الافرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة من العدّة، وذكر أن عدّة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد انفق عليه فيما حكي وقرب ثلاثمائة ألف دينار.وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به،واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والأفرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الاسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده

إليها لمضايقتها، وحدث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ، ثم رحل ونزل بالدهمية من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعة وما والاها ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غيرزحف ولا شدّ في محاربة تحرجا من قتل المسلمين، وقال: لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسان المنبجي مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات ، وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخرة، ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الأفرنج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابن منير في نو ر الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها قصيدة أوّلها :

ما برقت بيضك في غمامها
إلا وغيث الدين لابتسامها

يقول فيها:

محمـــــود المحمـــــود جـــــداً وجـــــداً
أرخـــص جلـــد الارض حكـــم عـــامهـــا

ملـــك أزل الـــروم عـــن صلبـــانها
دفـــاعـــه وكـــب مـــن أصنـــامهـــا

جـــال على الجولان أمـــس جـــولـــة
صفـــرت الأدحـــيّ مـــن نعـــامهـــا

والجون قـــد جـــرعهـــا أجـــونـــه
وفـــل مشحـــوذا مـــن اعتـــزامهـــا

وشـــدّ في القـــدّلـــه مليكهـــا
قـــود عتـــود القـــوط في شبـــامهـــا

وفي الـــرهـــا صـــابـــت لـــه سحـــابـــة
صـــاروا جفـــاء خـــف في التطـــامهـــا

وهـــب في هـــاب لـــه عـــواصـــف
تجهمتهـــا الهف مـــن جهـــامهـــا

وكفـــر لاثـــالاث في جبينهـــا
لثـــم ظبـــى أتـــت على لثـــامهـــا

وقـــايـــع يـــرفـــض تحت وقعهـــا
نظـــم الثـــريـــا في فضـــا مصـــامهـــا

فســـاعـــة البيـــض إذا عـــدّدهـــا
ســـوط عـــذاب صـــب في أيـــامهـــا

واعجبـــا لعصـــب الشرك التـــي
لم يعصـــب الـــرشـــد على أحـــلامهـــا

حكمـــة استـــواؤهـــا في غيهـــا
في نقـــض مـــا أحصـــد مـــن ابـــرامهـــا

مظفـــر الـــرايـــات والـــرأي إذا الـــ
ـــحرب مشـــت تعثـــر في خطـــامهـــا

عـــدّت بـــه حـــدّ العـــلاء همم
هـــن النجـــوم أو نـــواصي هـــامهـــا

جلت له الدنيا على زبرجها[٦٢]
عفوا فلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمي ظفره
انفذ في المشكل من حكامها
فتوّجته العز في مرتبة
تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبان للاسلام لا يغيظه اس
تسلامها للقسر من إسلامها
خط على مثل أب طاعت له الـ
ـآفاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على إيثاره
عراقها مستردفا بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى
واقعد الفائز من قوّامها
وامتك ماء مكة رواضع
يقصر باع الذهر عن فطامها
وصار كالجمر الجمار وخلا
من أهله الأشرف من مقامها
ودونها لازلت ترقى في حمى
من مؤلم الارداء أو لمامها
تلبس بيت اللّه وشي يمن
يقرأ آياتك من أعلامها
فإنما الدين رحى قطبتها
وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الآمال منك كعبة
سلم الليالي آية استسلامها
وارشفتنا بك ثغر نعمة
لانسأل اللّه سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه:

بجـــــدك اصحـــــب الجد الحزون
واطلـــــع فجـــــره الفتـــــح المبين
وفي كنفيـــــك ســـــولت الليـــــالي
وفـــــارق طبعـــــه الـــــزمـــــن الخؤون
ومنـــــك تعلـــــم القطـــــع المواضـــــي
وقـــــد زبنـــــت بها الحرب الـــــزبـــــون
وأنـــــت السيـــــف لم تمســـــه نـــــار
ولا شحـــــذت مضـــــاربـــــه القيـــــون
تـــــرقـــــرق فـــــوق صفحتـــــه الامـــــاني
ويقطـــــر مـــــن غـــــراريـــــه المنـــــون
وقبلـــــك مـــــا سمعـــــت بـــــذي فقـــــار
يثير الفقـــــر كـــــان ولا يكـــــون
ولا غيـــــث سماوتـــــه سريـــــر
ولا ليـــــث وســـــادتـــــه عـــــريـــــن
ولا قمـــــر لـــــه الهيجـــــاء هـــــال
ولا تـــــاج لـــــه الـــــدنيـــــا جبين
جبلـــــت نـــــدى وعفـــــواً وانتقـــــامـــــا
ومـــــاء كـــــل مجبـــــول وطين
وملكـــــك عمـــــر الأقطـــــار قطـــــرا
فـــــأمـــــرعـــــت الأواعـــــث والحزون
تـــــلا لأتحتـــــه غـــــرر الليـــــالي
إذا الايـــــام عنـــــد ســـــواك جـــــون
وأنـــــت أقمـــــت للجـــــدوى منـــــارا
يبين لشـــــائميـــــه ولا يبين
وعنـــــدك مشرب النعمـــــى زلال
إذا عبقـــــت مشـــــاربها الأجـــــون
تحكـــــم في عطـــــائك كـــــل عـــــاط
وقـــــد شيـــــدت مـــــن المنـــــع الحصـــــون

لقد أشعرت دين اللّه عزا
تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى
قويّ منك في الجلى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف
أسير في صفادك أو كنون
فبرنست البرنس لقاع خسف
وجرّع مرّ جوسك جوسلين
إذا ما الفعل علّ تلاه حذف
يتاح لمنتهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصدى
في أرضهم حف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا
فردّته قناك وفيه لين
وما خطرت بدار الشرك إلاّ
هوى الناقوس وارتفع الأذين
ملأت عظام ساحهم عظاما
فكل ملا لقوك به جرين
بإنب والقنا تجري نجيعا
كان عيون أكعبها عيون
وبين حرار صرخد ذبن حرّا
له في كل حبحبة كمين
وفين من العريمة في عرام
له في جونها الأقصى وجون
وكم حرم لحارم غادرته
ودارته لمنسفها دريّن
وفي شعراء قورس صغن شعرا
تدار على غرارية اللجون

وقـــــائع صرن في صنعـــــاء طيرا
يـــوقعهـــا على عـــدن عـــدون
نماك أب إذا عـــدّ انتســـابـــا
تـــراقـــى مصعـــدا والنـــاس دون
شمالا كـــان أمـــلاك البرايـــا
وقـــد قيســـوا بـــه وهـــو اليمين
قضـــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــة أهلهـــا البنيـــه ديـــن
لهذا اليـــوم تنتخـــب القـــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون
ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون
سلمـــت لنـــا فـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــه بـــأن تبقـــى يهون
تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله فى حديث ولا قديم بحيث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص، وفي سنة ست وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعة عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبى الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
باذلة افلاذ أكبادها
وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها
تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها
رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بما يقادها
فيممت منك حيا مزنة
بيض الايادي وردروّادها

فاسأل مجير الدين عن خبرة
أوردها محمود إيرادها

تبوّأت من عزها قبة
سمر القنا أطنابها أوتادها

تنافس الناس على دولة
فتّ بها أعين حسادها

يغدو المعادي كالموالي لها
فوالها إن شئت أوعادها

يا ملكا يزهى بأسمائه
منابر تسمو بأعوادها

وتأخذ الاسماع أوصافه
عن جمع الدنيا وأعيادها

كم للمعالي فيك من رغبة
تفنى الأماني دون تعدادها

لك المساعي الغر يا جامعا
من طرفيها بين أضدادها

يغني الورى أفرس فرسانها
وفي التقى أزهد زهادها

فانت نسكا غيث أبدالها
وأنت فتكا ليث آسادها

في أمّة أنت حمى دينها
حينا وحينا شمس عبادها

يطوى بك العمر إلى غاية
حسبك تقوى اللّه من زادها

هذا وكم من سنة بدعة
أعدمتها من بعد إيجادها

ما أثر لو عدمت راويا
تكفل النظم باسنادها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الأفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلت: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبى طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدّم عليهم ولده شمس الدولة ، فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم، فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورّطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدّمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعا حسنا.

قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال ، وهو الثاني من شباط وافت قبيل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهنيه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل
أبداتهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل
إما كتاب يستقل به الكتا
ئب أو رسول للنجاح رسيل
لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)
نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصول ثم يصول
سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل
سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل
فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجنى رضاك كفيل
وأقام ينشر في العراق ودجلة
آياتأوّلها لمصر النيل
وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

أليـــوســـف لما طلعـــت مقـــرطقـــا
طمثـــت حصـــان واستخـــف أبيـــل
أم عـــن سليمان يفـــرج ضـــاحكـــا
سجـــف الـــرواق وضعضـــع الكيـــول(٦٤)
ومملـــك في السرج أم ملـــك سطـــت
لبهـــائه عقـــل وتـــاه عقـــول
وبـــرزت في لبـــس الخلافـــة كـــالهلا
ل جـــلاه في حلـــل الـــدجـــى التهليـــل
خلـــع خلعـــن على القلـــوب مسرة
ســـدكـــاتها(٦٥) التعظيـــم والتبجيـــل
نثـــرت نضـــارا جـــامـــداً أعـــلامهـــا
وتكـــاد تجري رقـــة وتسيـــل
لقضـــى لها ان لاعـــديـــل لفخـــرهـــا
ربّ بـــراك فيما تـــلاك عـــديـــل
أنـــت المهنـــد منـــذ سلتـــه العلى
لم يخل مـــن مهـــج عليـــه تسيـــل
مـــذهـــز قـــائمـــه الامـــام تـــألقـــت
غـــرر شـــدخـــن لملكـــه وحجـــول
واليـــت دولتـــه فتهـــت بـــدولـــة
متكلـــل بصعيـــدهـــا الاكليـــل
ونصرتـــه فحـــلاك أبيـــض دونـــه
صرف الـــزمـــان إذا استكـــل كليـــل
قلـــدتـــه وكـــلاكما متلهـــذم
عضـــب فـــزان المغمـــد المسلـــول
وحبـــاركـــابـــك حين قـــرّ بـــزحفـــه الـــ
ـــقرآن واستخـــذى لـــه الانجيـــل
بـــأقـــبّ أصفـــر مشرف الهادي لـــه التـــ
حجيـــل لـــون واللما تحجيـــل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف باطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهدولم
يشلل على برق سواه شليل(٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزّمة الاقدار طوع يديك والـ
ـأيام جندك والانام عبيد
فتت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا لا يرفع الـ
ـمعدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّنماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيت للاسلام وهو مصوّح
فاهتز هضاب ورق نجود
وفتأت جمرة صاميلة بصيلم
نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح
نفس الارين لو أرهنّ برود(٦٧)
ورموا على الجولان منك بجولة
توئيدها نسر الضلال وئيد
ولحا عظامهم بعرقه عارق
مازلت تمخض جوّه فيجود
وشللت بالروج السروج وفوقها
زرع لمحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم
ملك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر باشروك فعافسوا
أهب الاساود حشوهنّ أسود
أودواكما أودى بعاد غيها
زعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
إن آلموا عقرا فانك صالح
أو آلموا غدرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة
خدّبه من وازع أخدود
وعصبتهم بعصائب مل ء الملا
شتى وإن خلّ البسالة عود
أثارها محمودة وآثارها
مشهودة وشعارها محمود
لبست من اسمك في الكريهة ملبسا
يبلي جديد الدهر وهو جديد

قصيرة الآجـــال طـــوّل بـــاعهـــا
بـــوع يســـامـــى هـــامهـــا وقـــدود
مطـــرورة الأســـلاب مـــذ هـــزعتهـــا
تـــاه الهدى وتبختر التـــوحيـــد
أشرعتهـــا فعلى شريعـــة أحمد
ممـــا جنتـــه بـــوارق وعقـــود
ولكـــم نثـــرت نظيمهـــا في مـــوقـــف
تغـــريـــد صـــالى حـــره التغـــريـــد
يجلـــو سنـــاك ظـــلامـــه ويحل مـــا
عقـــدت قنـــاه لـــواؤك المعقـــود
في هبـــوة زحـــم السماء رواقهـــا
والارض تـــرجـــف تحتـــه وتميـــد
ضربـــت مخيمهـــا فكـــان كما تها
أوتـــاده القصـــوى وأنـــت عمـــود
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك صـــادح
هـــزج الغنـــاء وطـــائر غـــرّيـــد
تهدي لعـــانـــة كـــاســـه فـــرغـــانـــة
وتسيـــغ زبـــدة مـــاشـــداه زبيـــد
فغـــرار سيفـــك لـــلاحـــابـــش محبس
ومثـــار نقعـــك للصعيـــد صعيـــد
لاتعـــدمـــن هـــذا المقلـــد أمّـــه
ملقـــى إليـــه لـــرعيهـــا الاقليـــد
الـــوردقـــر والمســـارح رحبـــة
والـــرفـــد مـــدّ والظـــلال مـــديـــد
والعيـــش أبلـــج مشرق القسمات والـــ
ـــأشجار غـــروا الاصـــائل غيـــد
والملـــك ممـــدود الـــرواق منـــوّر الـــ
آفـــاق وضـــاء المنـــى محســـود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود
محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقال يهنيه بليلة الميلاد ويصف النازلين في الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق
فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أخملـــت فيـــه كـــل تقـــى
وجـــه كصـــدر الحســـام تصبـــولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق
ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق
ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى
تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق
جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق
فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق
مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق
شـــاومـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق
يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

بـــــــــدائع تغبـــــــــط السماء بها الأر
ض وتـــــذكـــــي الاشفـــــاق في الشفـــــق
في دولـــــــة جمعـــــت ايـــــالتهـــــا
مـــــن بـــــددا لحســـــن كـــــل مفترق
تـــــذرّ أطـــــواقهـــــا على ملـــــك
مكتفـــــل رزق كـــــل مـــــرتـــــزق
محمـــــــــودا سما وميسما ونـــــــــدى
واعتصـــــب الـــــدم كـــــل مـــــرتفـــــق
طبـــق طـــوفـــانـــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــــا مشـــــف على غـــــرق
يـــابحـــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكـــــك هـــــذا الـــــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــدهـــر في طلـــق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس وبحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيدا منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محققت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها لكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا لاح شوارها
قداً تلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســـم لايشيـــم حســـامـــه
والارض تحمـــــل في الكفـــــور كفـــــورا
غســـل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليـــوم ردّبـــه الســـواحـــل بـــورا
لم يبـــــــق بين الحولتين وآمـــــــد
وتـــــراً لمضطغـــــن ولا مـــــوتـــــورا
اخلى ديـــــار الشرك مـــــن أوثـــــانها
حتـــى غـــداثـــالـــوثهـــن نكيرا
رفـــع القصـــور على نضـــائدهـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعـــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطـــــاوتهوى في الصبـــــاح نشـــــورا
غـــادرت انطـــرسـوس كـــالطـــرس انمحـى
رسما وحمر ردعهـــــــــا يحمـــــــــورا
وهـــي الـــزنـــادلفتنـــة كـــانـــت على الـــ
ـــــــاسلام أحكـــــــم كسره اكسيرا
هتمـــت طـــرابلســـافـــاصبـــح ثغـــرهـــا الـــ
ـــــبسام مـــــن عـــــز الثغـــــور ثغيرا
اقليـــدهـــاكـــانـــت وقـــدانطيتـــه
واســـأل بـــه ممـــن دهتـــه خبيرا
إن الاولى امنـــوا وقـــاعـــك بعـــدهـــا
غـــرّوا وقـــدركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا
الـــق العصـــافيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــم ودمـــر أرضهـــم تـــدميرا
لايلههـــم إن قـــدمننـــت وشنهـــا
شعـــواء تصلي الكـــافـــريـــن سعيرا
بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســـف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريـــك لامعـــة التريـــك بســـاحـــة الـــ
ـــــــــأقصى مطهـــــــــرة لها تطهيرا
أولســـــت مـــن قـــوم إذا هـــزوا القنـــا
فتلـــوا معـــاصمهـــم لها تســـويـــرا
وإذا هـــــم خطبـــوا اليراع عـــزيـــزة
ســـاقـــوا الشفـــار على المهـــار مهـــورا
القـــى قسيماهـــم إليـــك أزمـــة الـــ
ـــــملك المطـــل على السهـــاتـــأثيرا
ضحكـــت لـــك الأيـــام واكتـــأب العـــدا
قلقـــا فجئـــت مبشرا ونـــذيـــرا
لاملـــك الا ملـــك محمـــود الـــذي
تخذ الكتـــاب مظـــاهـــرا أووزيـــرا
تمشي وراء حـــــدوده أحكـــامـــه
تـــأتمهـــن فيحكـــم التقـــديـــرا
يقظـــان ينشر عـــدلـــه في دولـــة
جـــاءت لمطـــوى السماح نشـــورا
خلـــف الخلائف قـــائما عنهـــم بما
عيـــوابـــه ألـــوى الـــدّغيـــورا
البر والمعصـــوم والمهـــدي والـــ
ـــمأمون والسفـــاح والمنصـــورا
بشروابـــه فعهـــودهـــم وعهـــادهـــم
يمتحـــن تحت لـــوائه منشـــورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـد مـــا ادّعـــت ثـــراك هضـــابـــه
وتثقفتـــك شعـــوبـــه وشعـــابـــه
ملـــك تكنـــف ديـــن أحمد كنـــه
فـــأضـــاء نيره وصـــاب شهـــابـــه

فـــالعـــدل حيـــث تصرفـــت احكـــامـــه
والأمـــــن حيـــــث تصرمـــــت أسرابـــــه
متهلـــــــــل والموت في نبراتـــــــــه
يـــرجـــى ويـــرهـــب خـــوفـــه وعقـــابـــه
عقـــد اللـــواء وســـار يقـــدمـــه ومـــا
حلـــت عقـــود تميمهـــا أتـــرابـــه
أســـد فـــرائســـه الفـــوارس والظبـــا
أظفـــاره والسمهـــريـــة غـــابـــه
طبـــع الحديـــد فكـــان منـــه جنـــانـــه
وسنـــانـــه وإهـــابـــه وثيـــابـــه
ويهش إن كبـــت الـــوجـــوه كـــأنما
أعـــداؤه تحت الـــوغـــى احبـــابـــه
نشرت بمحمـــــــود شريعـــــــة أحمد
وأرى الصحـــابـــة مـــا احتـــذاه صحـــابـــه
مـــاغـــاب اصلـــع هـــاشـــم فيهـــا ولا الـــ
ـــفاروق بـــاء بخطبـــه خطـــابـــه
أبنـــاء قيلـــة قـــائمـــون بنصره
إن اجلبـــت مـــن قـــاســـط أحـــزابـــه
صبحـــوا محلقـــة البرنـــس بحـــالـــق
حـــرش الضبـــاب مـــن القلـــوب ضبـــابـــه
مـــازال يغلـــب مـــن بغـــاه ضـــلالـــه
حتـــى اتيـــح مـــن الهدى غـــلابـــه
ملقـــى بـــوحـــش الاصرمين تـــزيلـــت
آراؤه وتـــــــزايلـــــــت آلابـــــــه
دون الأرنـــط سخـــت بـــه نجـــداتـــه
ونجـــاده وقـــرابـــه وقـــرابـــه
سلبتـــه درّة تـــاجـــه يـــد ضيغـــم
لم تنجـــه مـــن بـــأســـه اســـلابـــه

واتتـــه تجلـــب جـــوسلين جنـــائب
هبـــت فقـــل إلى القتـــال هبـــابـــه

اسرتـــــه لامنعـــــت سراه وغـــــره
بـــــالقـــــاع إن رام الـــــورود سرابـــــه

يمشي فتسمعـــــه قعـــــاقـــــع قيـــــده
هـــــزجـــاً تقـــــي ءدمـــاً لـــــه أنـــدابـــــه

لاتـــــل بـــــاشره ولا كيســـــونـــــه
صـــــدّت منـــــى عنـــــه ولا عنتـــــابـــــه

ضمنـــت شقـــاوتـــه سعـــادة صـــافـــح
غطـــى على أعنـــاتـــه اعتـــابـــه

مـــازال يغـــدر ثـــم يعـــذر قـــادرا
حتـــى أتـــاه بجـــامـــح أصحـــابـــه

قصر الأمـــــاني إن يمـــــلأ عصرك الـــــ
ـــاسلام مضروبـــا عليـــه حجـــابـــه

مجر يجرّ إلى الغنـــــــائم قبـــــــه
وحمى يـــزار على الفتـــوح قبـــابـــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقـــد أوطـــأت ديـــن اللّـــه عـــزا
أديـــم الشعـــريين لـــه رغـــام

دعـــاك وقـــد تنـــاوشـــت الـــرزايـــا
لـــه اهـــب يـــوزعهـــا العـــذام

فقمـــت بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قيـــام ذم مـــا اقترفـــت فئـــام

جـــذبـــت بضبعـــه مـــن قعـــريـــم
لـــه مـــن فـــوق مقسمـــه التطـــام

وملـــت على معـــاقلهـــم فخّـــرت
ولاء مثـــل مـــا انتقـــض النظـــام

بصرخـــــدوالخطيـــــم وفي عـــــزاز
وقـــائع هـــز مشهـــدهـــا الانـــام
ولـــــو لم يعترف ويشـــــم لأمســـــى
وأصبـــــح لاعـــــراق ولا شـــــآم
صبيـــت على الصليـــب صليـــب بـــأس
قـــــواه تحت كلكلـــــه حطـــــام
ويـــوم بـــالعـــريمـــة كـــان حتفـــا
على الاشراك أمقـــــره العـــــرام
لقـــوك كـــأنّ مـــا سلـــوه شيـــح
ومـــا اعتقلـــوه مـــن خـــور ثمام
وهـــاب وقـــورس وبكفـــر لاثـــا
ذممـــت وأنـــت للجليّ ذمـــام
صـــدمتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
كـــــان مطـــــارا أنسره غمام
وأيـــة ليلـــة لم تلـــف فيهـــا
لهم طيفـــا يـــروع بـــه منـــام
بنـــور الـــديـــن أنشر كـــل عـــدل
تعفـــت في الثـــرى منـــه الـــرمـــام
وعـــاد الحق بعـــد كـــلال حـــدّ
حمى مـــن أن تـــراع لـــه ســـوام
تـــألـــق عـــدلـــه وذكـــت سطـــاه
فـــلا حيـــف يخاف ولا اهتضـــام
بقـــاؤك خير مـــا يـــرجـــوه راج
وأنفـــع مـــا يبـــلّ بـــه أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

توالت الأعياد لازلت لها
تبلي ديابيج البقاء وتجد
الفطر والميلاد والمولود لو
قابلته بدر التمام لسجد
ثلاثة تعرب عن ثلاثة
لمثلها يذكر حمدا من حمد
فتح مبين وطلاب مدرك
ودولة ما تنتهي إلى أمد

وله من أخرى يقول:

وجئت بأحمد فملأت حمدا
موارد كان معذبها عذابا
تهلل وجه ملكك يوم أهدت
قوابله لك الملك اللبابا
شبيهك لايغادر منك شيئا
سنا وحيا وبذلا واستلابا
قسيم الحمد الا انّ حرفا
من اسمك زاد للمعنى منابا
ألا للّه يوم فرّ عنه
وركب نص بالبشرى الركابا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان بحكمك وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هبيرة في كتاب الافصاح أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأي على الدعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول اللّه صلى اللّه وسلم على رعل وذكوان شهراً فابتدأ هو والخليفة سرا كل واحد في موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرّ الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوماً ولاينقص يوما، ووصل القصاد بذلك من همذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال اللّه يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لاأدل على وجود موجود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيا سيفا أعز الدين منه الـ
ـغرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا
كأن الأرض خامرها دوار
علاك حلى على الدنيا افتاج
بمفرقها وفي يدها سوار
أضاءت شمس عدلك في دجاها
فكل زمان ساكنها نهار
فتحرق من عصاك وأنت ماء
وتغرق من رجاك وأنت نار
الا للّه وجهك والمنايا
مكلحة وللبيض افترار
هتكت حجابه والنصر غيب
وللهبوات طيّ وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام
وضرب للرؤوس به انتشار
تبادره كأن الموت غنم
وما من عادة البدر البدار
أنخت على الصليب مطاصليبا
به من صك مبركه هدار
بمشرفه المناكب مقربات
لهن بمتن كل وغى حصار
جنين بإنب أنب العناصي (٦٨)
وإضن وللقنا منها ثمار
وفي هاب أبت بها فجاءت
كما أجلى من الكسم الصوار (٦٩)
وكم في فج حارم من حريم
عفته فلا جدير ولا جدار

وانطـــاكيـــة استنـــت إليهـــا
فـــاجفـــل خيطهـــا ولـــه عـــرار(٧٠)
وصبـــح في عـــزاز بها عـــزاز
فـــأمسى وهـــو وعـــث أو خبـــار(٧١)
يشـــق بها دجـــى الغمـــرات عسفـــا
جـــواد لا يشـــق لـــه غبـــار

وله من أخرى:

ومـــا يـــوم الفـــرنجـــة منـــك فـــذ
فتحصر عـــده خطـــط الحبـــاب
أجـــاش الاربعـــاء لهم خميســـا
بعيـــد الغـــور ملتطـــم العبـــاب
وأحكـــم بـــالخطيـــم لهم خطـــامـــا
أمـــر بـــريمـــه مـــرّ الضراب
مشـــو متســـانـــديـــن إلى صليـــب
يبرقـــع هبـــوة الصنـــم الصـــلاب
تلفهـــم المنـــايـــا في الثنـــايـــا
وتفجـــأهـــم شعـــوب مـــن الشعـــاب
أطـــاشـــت سهـــم كبشهـــم هنـــاة
فكنـــت ذبـــاب طـــائشـــة الـــذبـــاب
حللـــت التـــاج عنـــه وحـــل تـــاجـــا
مكـــان العقـــد مـــن عقـــد الكعـــاب
أنـــاف على العقـــاب فكـــان أشهـــى
وأبهى منـــه في ظـــل العقـــاب
فـــأشرف وهـــو عـــن شرف معـــوق
واصعـــد وهـــي غـــايـــة الانصبـــاب
تكـــاشره الشـــوامـــت وهـــو مغـــض
ثنـــاه منـــاه عـــن رجـــع الجواب

بعيـــــداً مـــــن قـــــراع واقتراع
يـــــؤوب لـــــه إلى يـــــوم المآب
وكـــم ســـوط بخيلـــك اقبلـــوه الصـــ
ـــدور فكـــان ســـوطـــا مـــن عـــذاب
تـــركتهـــم بـــأرض الشـــام شـــامـــا
لظفـــــر تتقيـــــه أو لنـــــاب
هتكـــت حجـــابهم والشمـــس وسنـــى
بشمـــس لا تـــوارى بـــالحجـــاب
بـــأبيـــض مـــن حبيـــك الهنـــد صـــاف
مصـــون المتـــن مبتـــذل الـــذبـــاب
لـــه سمـــة الشيـــوخ صفـــاء شيـــب
وفي خطـــواتـــه تـــرف الشبـــاب
الا يـــانـــاظـــر الـــدنيـــا بعين
أرتـــه عـــلابها (٧٢) خـــدع السراب

تبطنهـــا فطلقهـــا ثـــلاثـــا
على عـــــز التملـــــق والخلاب
فـــلا يـــأوي إلى رأي شعـــاع
ولا يثنـــى إلى أمـــل خـــراب
تـــرفـــع عـــن مجاورة الأمـــاني
وحلـــق عـــن محاضرة التصـــابي
صـــلاة اللّـــه كـــل درور شمـــس
على مثـــوى أبيـــك مـــن التراب
فقـــد ألقـــى إلى الاســـلام عضبـــا
يطبـــق في النـــوائب غير نـــابي
تجيـــش لـــه رواس كـــالـــرواسي
تمدّها جفـــان كـــالجوابي

وله من أخرى:

مظفر العزم ممدود الرواق على
معالم الدين يرفيها ويبنيها
ردّ الكنائس كنسا للهدى فخبت
نار الضلال ووارتها أثافيها
وأورد العلم عدا من اياته
فاستن وافتن عبا في صوافيها
وبث للشرك اشراكا فما درجت
طريدة منه الا استوهقت فيها
يا بدر مذ أشرقت في الدست غرته
غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمود هاعلما
به استقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت
واستعجمت بعد إفصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته
حتى استقرت على سمت سواريها

وله من أخرى:

عزت سيوفك فالعراق عراقها
والشام غير مدافعات شامها
إن أغمدت حل العزائم حلها
أو جردت حرم الكرى احرامها
شجنت (٧٣) عداك بها فلا اشراقها
بمفازة منها ولا إعتامها
سريت فصبحها بها يقظاتها
هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء إلا أن في رشفاته
ناراً حشاشات النفوس ضرامها

خفـــــــت على أيمانكـــــــم أوزانها
يـــوم الـــوغـــى واستثقلتهـــا هـــامهـــا
حتـــى أحلـــن الشـــام شـــامـــا صرصرت
فيـــه جنـــاد بها وصـــدّح هـــامهـــا
ورحضـــن أدران الجزيـــرة بعـــدمـــا
غمـــرت بها وهـــداتها وآكـــامهـــا
شطـــراً أبـــرت ومثلـــه أنظـــرتـــه
وقـــع الخطـــوب تكـــرهـــا أيـــامهـــا
بـــالخابطـــات الغـــاب تـــزأر أســـده
والمجفلي الحي اللقـــاح صيـــامهـــا
أورثها أجمات أنطـــــاكيـــــة
عنقـــا وقـــد شبـــب الصـــدا اجمامهـــا
تلقـــى المشـــافـــر في مـــراشـــف كلما
بـــردت بها الأكبـــاد زاد هيـــامهـــا
فغـــدت وقـــد عـــز السراح سراحهـــا
وتـــوزعـــت في كنسهـــا آرامهـــا
ومشـــى الضـــلال القهقـرى واستـأصـل الـــ
ـــاذان مـــن رجـــع الاذان صـــلامهـــا
وغـــدا يخللهـــا الخليـــل ســـواحبـــا
عـــذبـــا يمـــرّ لها العـــذاب غمامهـــا
غضبـــالـــديـــن اللّـــه حـــص جنـــاحـــه
بغيـــا وأدمـــى صفحتيـــه لـــدامهـــا
فـــالآن رد النـــور فيـــه نـــوره
وانجـــاب مـــن تلـــك الهنـــات ظـــلامهـــا
محمـــودا المحمـــودا قـــدامـــا إذا
خـــام الكماة وزلـــزلـــت اقـــدامهـــا
الفـــارج الكـــرب العظـــام تضـــاجمت
أشـــداقهـــا وفـــرى القلـــوب ضغـــامهـــا(٧٤)

وله من أخرى:

أمـــا الـــرعـــايـــا فـــإنها رشفـــت
لـــديـــك نعمـــى عـــذبـــا ثنـــايـــاهـــا
سلكـــت نهج العـــدل القـــويـــم بها
فـــاحمدت دينهـــا ودنيـــاهـــا
وكـــم اميتـــت خـــوفـــا فـــامنهـــا
متـــالـــف الخوف خـــوفـــك اللّـــه
للّـــه أقطـــارك التـــي قطـــرت
لها منـــاهـــا إلى منـــايـــاهـــا
أنـــب في إنـــب فـــوارسهـــا
تـــردي فتردي أولاك أخـــراهـــا
أشجـــت لهاة البرنـــس هبـــوتها
وكـــم عتـــا عـــاتيـــا فـــأشجـــاهـــا
وجـــوسلين استســـاغ نطفتهـــا
فـــاحتلـــب الـــذل تحت مغـــداهـــا
ردّتـــه صفـــرا مـــن كـــل مـــا ملكـــت
يـــداه أيـــد مـــاضـــل مسراهـــا
جـــويـــس جـــاستـــك أوجـــه لا رأت
بـــؤســـا وجـــاد الحيـــا محيـــاهـــا
في سريـــة لـــو تكـــون فـــارسهـــا
يـــومئـــذ مـــا انبعثـــت أشقـــاهـــا
لازال ظـــل النعماء عـــن ملـــك
مـــالشمـــس كفـــؤالـــه إذا بـــاهـــا
واللّـــه جـــازيـــه عـــن مقيـــدة
أعـــزهـــا اللّـــه مـــذ تـــولاهـــا
محمـــــودا المعتلي إلى فلـــــك
الحمـــد وثيراً لـــه ولايـــاهـــا
أعطـــاكـــه جـــدّك المتـــوج بالجـــ
ـــدّ ونفـــس للّـــه مغـــزاهـــا
نفـــس عـــزوف عـــن الخنـــا طبعـــت
نـــزهها اللّـــه يـــوم ســـوّاهـــا

أنـــت الـــذي سلـــم الانـــام لـــه
يمنـــى طبـــاق العلى ويسراهـــا
وأنـــت مـــولى الملـــوك قـــاطبـــة
مـــن كـــل فنـــا خسرو وشـــاهنشـــاهـــا
والشهـــر هـــذا الاقـــول أحمده
أوّه بـــديـــل مـــن قـــولتـــي واهـــا

وله من أخرى:
يـــابـــن الـــذي لم يـــال في نجـــدة الـــ
ـــإسلام ادلاجـــا وتهجيرا
تكنـــف الشـــام وقـــد شـــام بـــر
ق الخوف انجـــادا وتغـــويـــرا
وكـــف كلـــب الـــروم مـــن بعـــد أن
انشبـــه نـــابـــا واظفـــورا
فـــاهلـــه رقـــك إن انصفـــوا
رقـــا بحـــدّ السيـــف مسطـــورا
بـــدر هـــوى واستخلـــف الشمـــس في
دستـــك اشراقـــا وتـــأثيرا

وله من أخرى:
ملـــك كســـى الاســـلام مـــن ذبـــه
بـــردا بتـــدبيـــح الظبـــى معلما
مـــن أصبـــح الشـــام بـــه شـــامـــة
يقطـــر مـــن قتـــل عـــداه دمـــا
لـــو لم يقـــم منصلتـــا دونـــه
لم تلـــق في أقطـــارهـــا مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الـدهـــر مـــارضتـــه بـــالجود والبـــاس
مقســـــم بين اغـــــراس واعـــــراس
فتـــح تعـــافيـــه فتـــح ومطلـــب
دانـــى المنـــال وملـــك ثـــابـــت راسي
نصرا ببصرى وصفحـــاعـــن حماة لقـــد
أحسنـــــت للـــــداء حسما أيها الآسي
يـابـــن الـــذي عنـــت الـدنيـــا الـدولتـــه
مـــن فـــاطمـــي اعـــزتـــه وعبـــاسي

وله فيه أيضا:

غـــدا الـــديـــن بـــاسمـــك ســـامـــي العلـــم
أمين العماد مكين القـــــــــــــدم
لـــــذلـــــك لقبـــت نـــــورالـــــه
وقـــد أغطـــش الظلـــم فيـــه الظلـــم
أضـــاءت بعـــدلـــك آفـــاقـــه
وفضـــت عـــرى الـــديـــن لما ادهـــم
ولم تمش رهـــــوالنصر الـــــرهـــــا
ومثلـــــــك أدرك لما عـــــــزم
ويـــوم بســـوطـــا بسطـــت الحما
م على الهضـــب مـــن ركنهـــا فـــانهدم
وبصرى وصرخـــــدلـــــولم تثـــــر
دراكـــالكـــانـــاردي فـــي ارم
ومـــذفـــض جيشـــك في الغوطتـــ
ـــين فـــض الصليـــب لـــه مـــانظـــم
وفي كفـــر لاثـــا وهـــاب حللـــ
ـــت عقـــد البرنـــس ببيـــض خـــذم
معـــــــودة أنها لاتســـــــ
ـــــلّ الامقمقمـــــة للقمـــــم

يـــــوم بسرفـــــود جـــــرّ عتهـــــم
أجـــــاجـــــا أغصهـــــم واصطلـــــم

وفـــــوق العـــــريمـــــة غشـــــاهـــــم
عـــــرام جيـــــوشـــــك سيـــــل العـــــرم

وأبـــــت بكلبهـــــم في الكبـــــو
ل مبـــــاح الحريـــــم مـــــذال الحرم

وبـــــارتهم أذنـــــت انها
ابـــــارتهم فليبـــــؤ بـــــذم

بنـــــوهـــــا واعلـــــوا ولم يعلمـــــوا
بما خـــــط في اللـــــوح منـــــك القلـــــم

وانـــــك خـــــارم مـــــا أحكمـــــو
ه ومـــــن ديننـــــا راقـــــع مـــــا انخـــــرم

تـــــرفـــــع مـــــن بعـــــد خفـــــض هـــــدى
وتخفـــــض مـــــن بعـــــد رفـــــع صنـــــم

سمكـــــت المدارس فـــــوق النجـــــو
م فكـــــم منجـــــم تحتهـــــا قـــــد نجـــــم

وعـــــاش الحنيفـــــي والشافـــــ
ـــــعي بما شـــــدّت منهـــــا وكـــــانـــــا رمـــــم

وإن لم تكـــــن هـــــاشمـــــي الاصـــــو
ل فـــــانـــــك فـــــرع الهزبـــــر الهشـــــم

ومـــــن يـــــدّعـــــى في العلى مـــــا ادّعيـــــ
ـــــت وأنـــــت ابـــــن مـــــن عـــــز لما احتكـــــم

واقسـَـــم مـــــا غـــــاب ميـــــت سقـــــت
مغـــــارســـــه عين هـــــذي الشيـــــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

obeikandl.com

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسنا وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولايقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الدين وتابعو الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم أشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدّو فلجأوا إلى الله تعالى ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقا، نور الدين محمود، فحسن له السعي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوّة والحصار تعذر عليه لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظـــن صـــلاح الـــديـــن فـــرســـان جلـــق
كفـرسـانـه ومـا الاسـد مثـل الثعـالـب
رجـــال إذا قـــام الصليـــب تصلبـــت
رمـــاحهـــم في كـــل مـــاش وراكـــب
غـــدا يطلـــع الشـــام الفـــرنـــج بفيلـــق
مسعـــودة أبطـــالـــه للمصـــائب
لها الليـــل نقـــع والأسنـــة أنجـــم
فما غير أبطـــــال وغير جنـــــائب

وصلاح الديـن هذا المذكور ليس هـو يوسف بن أيـوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هـذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صـاحب حماه، أحـد أصحاب زنكـي وقد تقـدّم ذكره مـراراً، وكأنـه كان في مقـدمـة الجيش النـوري لما قصد دمشـق في المرتين الأوليين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، واللّه أعلم.

قال ابـن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفـرنج أن يملك نور الـدين دمشق، لأنـه كان يأخـذ حصونهم ومعاقلهـم وليست له دمشـق، فكيف إذا أخذهـا وقوي بها وإنضـاف إلى ذلك كـراهيته لسفـك دماء المسلمين فـإن الدم كـان عنـده عظيما لما كـان قد جبـل عليـه مـن الرأفـة والـرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فـراسل مجير الدين صاحبهـا واستمالـه، وواصله بـالهدايا وأظهر لـه المودّة حتى وثق إليـه، ثم صـار يكاتبـه في بعض الأوقـات ويقـول له: إن فـلانـا ـ ويـذكر بعـض الأمراء الذين لمجير الـدين ـ قد كاتبني في المخامرة عليـك فاحذره، فتارة يأخـذ اقطاع أحدهـم، وتارة يقبض عليـه، فلما خلت دمشق مـن الأمراء قدم أميرا كان عنـده يسمى عطاء بن حفـاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعـا، وفوّض إليـه أمر دولته، وكـان نور الديـن لايتمكن مـن دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم
لحور نسائهم منهم نساء
هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هناك ولا رواء
لاسمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء
ويا نعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفال وعد
يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذي شزرت قواه
وهذ به لخدمتك الصفاء
وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فنار بل ذكاء
جنته لك السعادة قط رأي
لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الديـن شيركوه رسـولاً من نـور الديـن إلى ظاهـر دمشق، وخيـم بناحيـة القصـب مـن المرج في عسكـر يناهـز الألـف، فـأنكـر ذلـك، ووقـع الاستبحـاش منـه واهمال الخروج إليـه لتلقيـه والاختـلاط بـه، وتحرّرت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفرعن سـداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطـاع الواصلين بالغلات، ووصـل نور الديـن في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفـاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبـار من الغـوطة ، وزحف إلى البلـد من شرقيـه، وزحف إليـه من عسكـره وأحـداثـه الخلـق الكثيرووقـع الطراد بينهـم، ثـم عـاد كـل مـن الفريقين إلى مكـانه، ثم زحف يـوما بعد يوم ، وتـأكد الزحف يـوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليـهالعسكر الدمشقي فاندفع بين أيـديهم حتى قربوا من سور باب كيسـان والدباغة من قبلي البلد وليـس على السور أحد من العسكريـة والبلديـة لسوء تـدبير صاحـب الأمر ، غير نفـر يسير لايؤبـه لهم، فتسرع بعض الـرجالة إلى السـور وعليه امـرأة يهودية، فأرسلـت إليه حبلا فصعـد فيه، وحصل على السـور ولم يشعر بـه أحد وتبعه مـن تبعه وأطلعـوا علما نصبوه على السـور وصاحـوا:نور الـدين يـامنصور، وامتنـع الاجناد والـرعية مـن الممانعة لما هـم عليه من المحبـة لنور الـدين وعـدله وحسـن ذكره، وبـادر بعض قطـاعي الخشـب بفأسـه إلى الباب الشرقـي فكسر أغلاقـه، وفتحه فدخل منـه العسكر وسعوا في الطرقـات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح بـاب توما، أيضا ودخل الناس منـه، ثم دخل نور الديـن وخواصه ، وسرّ كـافة الناس من الأجنـاد والعسكرية لما هـم عليه من الجوع وغـلاء الاسعار والخوف مـن منازلـة الفرنـج الكفار،وكـان مجير الدين لما أحس بـالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعـة وأنفذ إليه فـأومن على نفسـه ومـالـه، وخرج إلى نـور الـديـن فطيب نفسـه ووعـده الجميـل،ودخـل نور الـدين القلعـة في اليـوم المقدّم ذكـره وأمـر بالمنـاداة بالامان للرعيـة والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قـوم من الرعاع والأوباش إلى سـوق علي وغيره فعاثـوا ونهبوا، وأنفـذ نور الـدين إلى أهـل

البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى اللّه تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه.

وقال ابن الاثير: لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعيا إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز ، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طلائع بن رزيك ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يابني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستمالة أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: يامولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسدّ ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته وما بينه وبينه من قديم الصحبة، فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته فقال: يافلان ما تساوي الحياة الشتات والرجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان، ومنعه من ذلك بإحسانه ووعده أن يستخلص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكاتبات وأشعار متصلات إلى أن سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكر النوري بحلب فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسرت بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بأنفسهم، وأن متملك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، وأكتروا ظهراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّه أشكو فرقة دميت لها
جفوني واذكت بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى
وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما قضى اللّه اللقاء تعرضت
مساءة دهري في طريق سروري[٧٦]

فصل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر

محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الدين هذا هو ابن الداية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى من قبل هذا المابعد
فأقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لعفاته
قرائن كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى
ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى
وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد
إذا وجه نور الدين قابل مجده
فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم، وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبو يعلى: وفي ثامن من جمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها، فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفراً، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيد وافي الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد
لاتعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشآم إني لكم ناصح في مقالي
واياكم وسمي النبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النساء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاد يمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش ملك قونية وما والاها ، فملك عدّة من حصونها وقلاعها بالسيف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونصروا عليهم في وقعة كانت بأقصرا في شعبان، فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عظم عليه هذا الأمر، واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينهما مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

قال: وولي الاسطول المصري مقدّم شديد البأس. بصير باشغال البحر، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابهم، ونهض بهم في عدّة من المراكب الاسطولية، وأقلع في البحر ليكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره أن يركب على باب الكعبة المكرّمة باب ساج جديدا، قد ألبس جميع خشبه فضة وطلي بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند موته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعدت من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججت في الموسم منها فدفعت لأمير

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

obeikandl.com

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

ما فوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
هم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى لآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها ميّاد

أحيا ربيع العدل ميت ربوعها
فالبرض نسج والهشيم مراد
فالعيش إلا في جنابك ميتة
والنوم إلا في حماك سهاد
وإذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا
كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها
جن الملا وكأنها أطواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورها
فالزجر قيد والندى قياد
سحب إذا سحبت بأرض ذيلها
فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدي النواظر في دجنة نقعها
بندر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يانوره
عزّا له فوق السُها إسعاد
مازلت تسمكه بميداد القنا
حتى تثقف عوده الميداد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلة
فلهم إلى المرعى الوبيّ معاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهد
قامت به لظباكم الاشهاد

ملق بأطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حـــامـــوا فلما عـــاينـــوا حـــوض الـــردى
حـــامـــوا بـــرائش كيـــدهـــم أو كـــادوا
ورجـــا البرنـــس وقـــد تبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــا بحـــارم والمصـــاد مصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــد حـــداد
وســـواعـــد ضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــة أحمد الاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــا بغـــداد
يـــامـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــد الشمـــس كـــاسفـــة السنـــا
نـــارهـا ذاك الشهـــاب زنـــاد
لاينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــد خـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
لملكـــك مـــا تشـــاء مـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيت من المعالي بالمعاني
ولاذالناس بعدك بالاسامي
عزيز المنتمى عالي المراقي
بعيد المرتمى غالي المسامي
فما أحد إلى العلياء يدلي
بمحتدك القسيمي القسامي
أبوك المعتلي قمم الأعادي
إذا استعرت مذامرة القمام
زكا عرق العراق وقد تكنى
به وأطال من شمم الشآم
وجدك جدّ حتى قال قوم
على الفلك ابتنى عمد الخيام
فخرت ففت أباء عظاما
إذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات
وروح العزذاريّ الختام
أساطر كالزبور مفصلات
كأنا من صلاة في نظام
لدى ملك سجايا ه سجال
تعاقب بين عفو وانتقام
كريم أكثرت يده أيادى الـ
ـعفاة وقللت عدد الكرام
فأهللنا لسالفتي هلال
وكفرنا لضاحكتي حسام
ذهلنا والسماط تخال سمطا
وقد سجد المقاول للسلام
هل الدست استقل بليث غاب
أم الفلك ارتدى بدر التمام

يطـــربـــه إلى العليـــاء نفـــس
غـــروب عـــن مـــلاءمـــة الملام
وخير سماعـــــه ضرب مـــــدام
إذا طـــــرب الملـــــوك إلى المدام
سقـــى اللّـــه العـــوامـــل مـــن جبـــان
شققـــن النقـــع عـــن نقـــع الاوام
فكـــم انتجـــت مـــن أمـــل عقيـــم
بها وحسمـــــت مـــــن داء عقـــــام
بـــإنـــب والـــرعـــال كـــأن ثـــولا
تطـــاوح تحت عير مـــن أيـــام
مقـــام كنـــت قطـــب رحـــاه أرجـــى
مقـــام بين زمـــزم والمقـــام
رميتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
ابـــارهـــم وكنـــت أبـــرّ رام
وقمـــت وقـــد تنـــاعـــس كـــل راع
وقـــام وقـــد تقـــاعـــس كـــل حـــام
فـــأيـــدي الخيـــل تـــذرع بحـــر لـــج
مـــن الـــدم مـــن يـــد التئخين طـــام
أحلـــت الـــديـــن فيـــه وكـــان هما
عـــزيـــز القـــوم معتـــدل القـــوام
وفي شجـــراء حـــارم شـــاجـــرتهم
ســـواهـــم كـــالسهـــام بكـــالسهـــام
نظـــائر حممـــــت لهم حمامـــــا
تطـــايـــر تحتـــه مثـــل الحمام
فلـــو قـــد مثـــل الاســـلام شخصـــا
لـــرشـــف مـــا وطئـــت مـــن الســـلام
فـــاكـــذب مـــدّعين هفـــوا وغـــرّوا
بـــأن الأرض تخلـــو مـــن همام

أولى لابصاركم هذا التعاشي
عن النور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلوه ظل الـ
ـعواصم في ضيا الليل التهامي
هو المهدي لامن ضل فيه
كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لامتمنى
به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق
أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى اسـ
ـتوت بين الفوارس والنعام
تطابق لاسمه لفظ ومعنى
أحلاه الطباق على الأنام
جرى قدّامه ابن سبكتكين
وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى
إليه من عنايات التكامي
وجئت فصار أشمخ مابناه
لماشيدت الطأمن رغام
أطاعك إذ أطعت اللّه جدّ
ركبت به الزمان بلا زمام
ألا ياربها اتفق الاسامي
وفاضل بينها درج التسامي
جنى شرفا من استغواه حتف
إليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت
كانك من طعان في طعام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها
مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة
كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا
قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما
أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع اللّه تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل، وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت في حلب تأثيرا أزعج أهلها وأقلقهم وكذا في حمص وهدمت مواضع فيها، وفي حماه وكفر طاب وأفامية ، وهدمت ما كان بني من مهدوم الزلازل، وحكي أن تيماء أثرت فيها هذه الزلازل تأثيرا مهولا، وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم ير مثلها فيما تقدّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهربوا من الدور والسقائف وانزعجوا وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادته، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حركها، ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة،وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت وليلة الأحد وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه، ويرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّا حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكربن منقذومن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قد قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم، وتلفت قلعتها، وأمّا حلب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء

هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء

وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ما قضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطه وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجىء إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفرالناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلاّ كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من نياما(٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت واذلا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
ـارض بالغافلين كي يستفيقوا(٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعـوّضـوا مـن مشيـدات المنـازل بـالـ
ـلاكواخ فهـي قبـور سقفهـا خشـب

كـأنها سفـن قـد أقبلـت وهـم
فيهـا فـلا ملجـأ منهـا ولا هـرب(٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

مـا استـدرج الموت قـومـي في هـلاكهـم
ولا تخرمهـم مثنـى ووحـدانـا
فكنـت اصبر عنهـم صبر محتسـب
وأحمد الخطـب فيهـم عـز أو هـانـا
واقتـدي بـالـورى قبلي فكـم فقـدوا
أخـا وكـم فـارقـوا أهـلا وجيرانـا
لكـن سقـب المنـايـا وسـط جمعهـم
رغـا فخـروا على الاذقـان اذعـانـا
وفـاجـأتهم مـن الأيـام قـارعـة
سقتهـم بكـؤوس الموت ذيفـانـا
مـاتـوا جميعـا كرجـع الطـرف وانقـرضـوا
هـل مـا تـرى تـارك الحين إنسـانـا
اعـزز علـي بهم مـن معشر صبروا
على الحفيظـة إن ذولـوثـة لانـا
لم يترك الـدهـر لي مـن بعـد فقـدهـم
قلبـا أجشمـه صبرا وسلـوانـا
فلـو رأوني لقـالـوا مـات أسعـدنـا
وعـاش للهـم والاحـزان اشقـانـا
لم يترك الموت منهـم مـن يخبرني
عنهـم فيـوضـح مـا قـالـوه تبيـانـا
بـادوا جميعـا ومـا شـادوا فـواعجبـا
للخطـب أهلـك عمارا وعمـرانـا

هـــذي قصـــورهـــم أمســـت قبـــورهـــم
كـــذاك كـــانـــوا بها مـــن قبـــل سكـــانـــا

ويـــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لاألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلاّ كسير القلـــب حيرانـــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها الشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــاواة وشنـــأنـــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لايغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لايغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــره الشـــام أهلـــه فهـــو محقـــو
ق بـــأن لا يقيـــم فيـــه لبيـــب

إن تجلـــت عنـــه الحروب قليـــلا
خلفتهـــا زلازل وخطـــوب
رقصـــت أرضـــه عشيـــة غنـــى الـــ
ـــرعد في الجوّ والكـــريـــم طـــروب
وتثنـــت حيطـــانـــه إذا مـــالتـــ
ـــها شمال بـــزمـــرهـــا وجنـــوب
لاهبـــوب لنـــائم مـــن أمـــانيـــ
ـــه وللعـــاصفـــات فيهـــا هبـــوب
وأرى البرق شـــامتـــاضـــاحـــك السـ
ـــن وللجـــوّ بـــالغمام قطـــوب
ذكـــروا أنـــه يـــذوب بـــه السحـــ
ـــب فما للصخـــور أيضـــا تـــذوب
أبـــذنـــب أصـــابها قـــدر اللـــ
ـــه فلـــلأرض كـــالأنـــام ذنـــوب
إن ظنـــي والظـــن مثـــل سهـــام الـــ
ـــرمي منهـــا المخطـــى ومنهـــا المصيـــب
إن هـــذا الأن غـــدت ســـاحـــة القـــد
س ومـــا لـــلاســـلام فيهـــا نصيـــب
منـــزل الـــوحـــي قبـــل بعـــث رســـول اللـــ
ـــه فهـــو المحجـــوج والمحجـــوب
نـــزلـــت وسطـــه الخنـــازيـــر والخمـــ
ـــرو بـــارى النـــاقـــوس فيـــه الصليـــب
لـــو رآه المسيـــح لم يـــرض فعـــلا
ذكـــروا أنـــه لـــه منســـوب
لهف نفسي على ديـــار مـــن السكـــ
ـــان أقـــوت فليـــس فيهـــا مجيـــب

أن تخصيصكـــــم نـــــوائب مـــــازا
لـــت لكـــم دون مـــن ســـواكـــم تنـــوب

أبعـــد النـــاس عـــن عبـــادة رب النـــ
ـــــاس قـــــوم إلههـــــم مصلـــــوب

فـــاحتســـب مـــا أصـــاب قـــومـــك مجد
الـــديـــن واصبر فـــالحادثـــات ضروب
فكـــذاك القنـــاة يكسريـــوم الـــ
ـــــروع منهـــا صـــدر وتبقـــي الكعـــوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الـدين يوسف بن أيوب مع عبيد غـلام المولى، وكان عبيد هـذا موصوفا بـالثقل في بيت بمـدينة حماه يوم الزلزلـة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيـت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قـــل لصـــلاح الـــديـــن رب النـــدى
بلـــغ عبيـــدا كـــل مـــا أملـــه
بثقلـــــــه لما تصـــــــاحبتما
سلمـــك اللّـــه مـــن الـــزلـــزلـــة

قرأت في بعض كتب أبى الحسين الرازي عن شيـوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعـدة سنـة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمـة، حكـى عنهـا نحو مما مضى ذكره، وأكثر ، نسأل اللّه تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبـو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نـور الدين إلى نـاحية بعلبـك لتفقد أحـوالها، وتقـرير أمـر المستحفظين لها، وتواصلـت الأخبار من نـاحية حمص وحماه باغارة الفـرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كانكمنلهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح وورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم اللّه تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطىء، واللّه يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة باتياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بالاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مـــا رأينـــا فيما تقـــدّم يـــومـــا
كـــامـــل الحســـن غـــايـــة في البهـــاء
مثـــل يـــوم الفـــرنـــج حين علتهـــم
ذلـــــة الاسر والبـــــلا والفنـــــاء
وبـــرايـــاتهم على العيـــس زفـــوا
بين ذلّ وحسرة وعنـــــــــــاء
بعـــد عـــزهم وهيبـــة ذكـــر
في مصـــاف الحروب والهيجـــاء
هكـــذا هكـــذا هـــلاك الأعـــادي
عنـــد شـــنّ الاغـــارة الشعـــواء
شـــؤم أخـــذا الجشـــار كـــان وبـــالا
عمهـــم في صبـــاحهـــم والمســـاء
نقضـــوا هـــدنـــة الصـــلاح بجهـــل
بعـــد تـــأكيـــدهـــا بحســـن الـــوفـــاء
فلقـــوا بغيهـــم بما كـــان منهـــم
مـــن فســـاد بجهلهـــم واعتـــداء
لاحمى اللّـــه شملهـــم مـــن شتـــات
بمـــواض تفـــوق حـــدّا المضـــاء
فجـــزاء الكفـــور قتـــل وأسر
وجـــزاء الشكـــور خير الجزاء
ولـــرب العبـــاد حمد وشكـــر
دائم مـــع تـــواصـــل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثروا العيث، واتصل ذلك بنور الدين فأنهض إليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدّ حصار حتى افتتحها في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر، وغنم منهم غنيمة حسنة ، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وفي الثاني عشر من جمادى الآخرة، تواصلت الأخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الأفرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الأمر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قال: وفي ثالث رجب توجه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها ثم قال بعد ذلك: قد تقدّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، واياس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يازماني
وفزت بما رجوت من الأماني
فكم أصبحت مرتاعا الخوف
فبدلت المخافة بالأمان
وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان
فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني
فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لا كسف ولا تكدار
ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل
لك السرايا وله السرار
برؤك لا سلام من أدوائه
برء وفي اعدائه بوار
ما أنت إلاّ السيف صدصدأ
عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس
لحملته دونك الابصار
ولو فدت أرض السماء ساقت الـ
ـملوك في فدائك الامصار

أنـــت غيـــاث محلهـــم إن أجـــدبـــوا
وخيرهـــــم إن ذكـــــر الخيـــــار
وفي سريـــر الملـــك منهـــا ملـــك
للّـــــــــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملـــــوك الأرض جـــــداً وأبـــــا
إن هـــز عطفـــي مـــا جـــد نجـــار
مـــد على الـــديـــن رواق دولـــة
تنـــازعـــت أسمارهـــا السمار
علـــت بنـــايـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــي عليـــه الســـور والســـوار
محمـــودا المحمـــود عصر ملكـــه
فللحيـــا مـــن مـــزنـــه اعتصـــار
يـــا نـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــو لم تبلـــج هـــذه الاثـــار
للّـــه أيـــامـــك مـــا تخطـــه
بـــا لمســـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســـلام تـــرعـــى سرحـــه
إذا ونـــى رعـــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــولا شفـــاء ردّهـــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نسـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لا عـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــا سمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

وله من قصيدة أخرى

لا نـــؤدي لانعـــم اللّـــه شكـــرا
بـــك يـــا أعظـــم البريـــة قـــدرا
زور عشر وافى لاقـــــــــلاع ذا
جعـــــلا المنـــــة الممنـــــاة عشرا
أم مغنـــــاك ضـــــامنـــــا أن أيـــــا
مـــــك تفنـــــي الأحقـــــاب عصرا فعصرا
في محل لـــــه السماكـــــان سمـــــك
وجـــــــدود لها المجـــــــرة مجرى
أيها العـــــادل المظفـــــر لاقـــــ
ـــصت شبـــا الـــدهر مـــن شبـــاتـــك ظفـــرا
جعـــل اللّـــه مـــا استهـــل مـــن الأشـــ
ـــــهر ينهـــــل في مغـــــازيـــــك نصرا
أبـــــدا ينشر التهـــــاني على ســـــا
حتـــــك الـــــزهـــــر في المواســـــم نشرا
أنـــــت أسرى الملـــوك نفســـا وقنســـا(٨١)
وإلى أسرهـــــم مـــــن الطيـــــف اسرى
ملـــــك عنـــــده المشـــــارب تستمـــــ
ـــــــري واخـــــلاف الجود تمرى فتفـــــرى
فلـــــك اللّـــــه مـــــن مثمـــــر بـــــذر
يصطفـــــي صـــــالحا ويحصـــــد أجـــــرا
عـــش لملـــك أصبحـــت في الـــدســـت منـــه
فـــــوق كسرى عـــــدلا وشعبـــــا وكسرا
تفطـــــر الطيبـــــات للفطـــــر فطـــــرا
وتعـــــم الاعـــــداء في النحـــــر نحـــــرا
يقتنـــــي مـــــن كســـــاك أنفـــــس ملبـــــو
س ويقنيـــــك منـــــه أطـــــول عمـــــرا

أنـــت تملي ونحـــن ننظـــم مـــا تنـــ
ـــثره الغـــر مـــن مســـاعيـــك نثـــرا
صرف اللّـــــه عنـــــك عين زمـــــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــوالـــت لـــك الفتـــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيـــــا وأمـــــرا
كلما انهجـــت مـــلابـــس نعمـــى
وتمليتهـــــن جـــــدّدت أخـــرى

وقال القيسراني من قصيدة:

أشرق البـــــدريـــــاجبين الهلال
فجـــلاه لـــوجهـــك المتـــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــــة الهلال ليـــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــا نجـــم شكـــوى
فتهنـــى لـــوافـــد الاقبـــال
لا ولا كـــان زائرا مـــن سقـــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــذه السماء سرار الـــ
ـــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــــة اللّـــــه لايخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــ
ـــران ألبســـت صـــافي الاذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقـــى والنـــدى ومعـــربـــة الخيـــ
ـــــل وبيـــض الظبـــى وسمـــر العـــوالي

والخلال التـــــي إذا مـــــا تحلـــــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــــق فـــــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ـــــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـ
ـــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ـــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــالملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ـــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ـــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعا كريما صواما قواما، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: واللّه لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلوم أبت في الظلم إلاّ تماديا
وفي الصدّ والهجران إلاّ تناهيا
شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فياعجبا من ظالم جاء شاكيا

وطـــاوعـــت الـــواشين في وطـــالما
عصيـــت عـــذولاً في هـــواهـــا وواشيـــا
ومـــال بهاتيـــه الجمال إلى القـــلا
وهيهـــات أن أمسي لها الـــدهـــر قـــاليـــا
ولا نـــاسيـــا مـــا أودعـــت مـــن عهـــودهـــا
وإن هـــي أبـــدت جفـــوة وتنـــاسيـــا
ولما أتـــاني مـــن قـــريضـــك جـــوهـــر
جمعـــت المعـــالي فيـــه لي والمعـــانيـــا
وكنـــت هجـــرت الشعـــر حينـــا لأنـــه
تـــولى بـــرغمـــي حين ولى شبـــابيـــا
وأيـــن مـــن الستين لفـــظ مفـــوف
إذا رمـــت أدنـــى القـــول منـــه عصـــانيـــا
وقلـــت أخـــي يـــرعـــى بنـــي واسرتي
ويحفـــظ عهـــدي فيهـــم وذمـــاميـــا
ويجزيهم مـــا لم أكلفـــه فعلـــه
لنفسي فقـــد أعـــددتـــه مـــن تـــراثيـــا
فمالـــك لما أن حنـــى الـــدهـــر صعـــدتـــى
وثلـــم منـــي صـــار مـــا كـــان مـــاضيـــا
تنكـــرت حتـــى صـــار بـــرك قسوة
وقـــربـــك منـــي جفـــوة وتنـــائيـــا
فـــأصبحـــت صفـــر الكـــف ممـــا رجـــوتـــه
كـــذا اليـــأس قـــد عفـــى سبيـــل رجـــائيـــا
على أننـــى مـــا حلـــت عما عهـــدتـــه
ولا غيرت هـــذي السنـــون ودادیـــا
فـــلا غـــرو عنـــد الحادثـــات فـــإننـــي
أراك يمينـــى والانـــام شمـــاليـــا
تهن بها عـــذراء لـــو قـــرنـــت بها
نجـــوم سماء لم تعـــد درارياـــا

تحلـــت بـــدر مـــن صفـــاتـــك زانها
كما زان منظـــوم الـــلآلي الغـــوانيـــا
وعـــش بـــانيـــا للجـــود مـــا كـــان واهنـــا
مشيـــداً مـــن الاحســـان مـــا كـــان واهيـــا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبـت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

هـــــلّا انفـــــت حيـــــاء أو محافظـــــة
مـــن فعـــل مـــا انكـــرتـــه العـــرب والعجـــم
اسلمتنـــــا وسيـــــوف الهنـــــد مغمـــــدة
ولم يـــــروّ سنـــــــان السمهـــــــري دم
وكنـــــت أحســـــب مـــــن والاك في حـــــرم
لا يعتريـــــه بـــــه شيـــــب ولا هـــــرم
ومـــا طُمان بـــأولى مـــن أســـامـــة بـــالـــ
ـــــوفاء لكـــــن جـــرى بالكائن القلـــــم
هبنـــــا جنينـــــا ذنـــوبـــاً لا يكفـــرهـــا
عـــــذر فماذا جنـــــى الأطفـــــال والحرم
القيتهـــم في رضـــى الأفـــرنـــج متبعـــا
رضـــى عـــدى يسخـــط الـــرحمن فعلهـــم
جـــرّبهم مثـــل تجريبـــي لتخبرهـــم
فللـــرجـــال إذا مـــا جـــربـــوا قيـــم (٨٢)

وهي طـويلة، وطُمان المذكـور خادم تركـي كان لأتـابك ملـك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمتـه إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لـج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمتـه بدمشق، وبقـي أسامة بمصر إلى أن خـرج منها مع عبـاس كما سبق ذكـره، وأسر الفر نـج أخاه نجـم الدولـة محمد بـن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الـدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانـة في فكاكه، فلـم يفعل ، قال: وادّخـر الله سبحـانه أجر خـلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّـه فوهبه فارساً من مقدمي الـداويـة يقال لـه المشطـوب، قـد بـذل الافـرنج فيـه عشرة آلاف دينـار فاستخلـص به أخاه مـن الأسر، وبلغ أسامـة أن القاضي كمال الديـن بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملـــــك بنـــــي منقـــــذ تـــــولى
وكـــــان فـــــوق السماك سمكـــــه

فـــاعتبروا وانظـــروا وقـــولـــوا
سبحـــان مـــن لا يـــزول ملكـــه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكـــل ملـــك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكـــه
إن لم يـــزل بـــانتقـــال حـــال
أزال ذا الملـــك عنـــه هلكـــه
واللّـــه رب العبـــاد بـــاق
وهـــو الـــملـــك نـــده وشركـــه
فقـــل لمن يظلـــم البرايـــا
غـــرك امهـــاله وتـــركـــه
تنســـى ذنـــوبـــا عليـــك تحصـــى
يحصرهـــا نقـــده وحكمـــه
كـــم نـــاســـك نسكـــه ريـــاء
أو بقـــه في المعـــادنسكـــه
فـــاحـــذر فما يختفـــي عليـــه
مـــن عنـــده صـــدقـــه وافكـــه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مـــع الثمانين عـــاث الضعـــف في جلـــدي
وســـاءني ضعـــف رجلي واضطـــراب يـــدي
إذا كتبـــت فخطـــي خـــط مضطـــرب
كخـــط مـــرتعـــش الكفين مـــرتعـــد
فـــاعجـــب لضعـــف يـــدي عـــن حملهـــا قلما
مـــن بعـــد حطـــم القنـــا في لبـــة الأســـد
وإن مشيـــت وفي كفـــي العصـــا ثقلـــت
رجلي كـــأني أخـــوض الـــوحـــل في الجلـــد

فقـــل لمن يتمنـــى طـــول مـــدتـــه
هـــذي عـــواقـــب طـــول العمـــر والمدد(٨٣)

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الـرئيس أبـو يعلى: تناصرت الأخبـار بظهور أمير المؤمنين المقتفـي على عسكر السلطان المخـالف لأمره ومن انضم إليه مـن عسكر الموصل وغيره بحيـث قتـل العـدد الكثير، ورحلـوا عـن بغـداد مفـرقين مفلـولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجـب بوفاة السلطان غيـاث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتـح بن ألب أرسلان، سلطان خـراسان، عقيب خلاصه مـن الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصـل فيه، وكان يحب العدل والانصـاف للرعايا وحسـن السيرة ، جميل الفعل، وقد علـت سنة وطال عمـره، وكان قد ورد كتـابه في أواخر صفـر من هذه السنـة إلى نور الديـن بالتشـوق إليه والإحماد لخلالـه، وما ينتهـي إليه مـن جميل أفعـاله، وإعلامـه ما مـنّ اللّه عليـه به مـن خلاصـه من الشـدة التي وقـع فيها، والأسر الذي بلي به في أيـدي الأعداء الكفرة من ملـوك التركمان، ، بحيلة دبـرها وسيـاسة أحكمهـا وقررهـا، بحيـث عاد إلى منصبـه من السلطنـة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيهـا في شهر رمضان ورد الخبر مـن ناحيـة حلب بوفـاة الشيخ مخلص الدين أبى البركات عبد القـاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مـال نور الديـن، وكان كاتبا بليغـا حسن البلاغـة نظما ونثرا مستحسن الفنون مـن التذهيب البديع وحسـن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من أعيان خاصته، وكان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قال: وفيها في أوائل ذي القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقب بصلاح الدين، وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمل في المحفة لتقرير الأحوال، والنظر في الأعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولاده في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بلخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية، والإسراع في جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبو الحياة محمد ابن أبي القاسم بن عمر السلمي،ووعظ في جامع دمشق عدة أيام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابن الأثير: وفيها في ذي الحجة توفي الأمير عز الدين أبى بكر الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، وكان من أكابر الأمراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلا حازما ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهرإليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألاهكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الاعداء والليل نائم

يبـــارى خيـــولا مـــا تـــزال كـــأنها
إذا مـــا هـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــام في كـــل مـــارق
ومـــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــه عين الـــزمـــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــم جمع الفـــرنـــج بجملـــة
تهون على الشجعـــان فيهـــا الهزائم
فلقـــوهـــم زرق الاسنـــة وانطـــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومـــا زالـــت الحرب العـــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــا تـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـــم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لـــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــبـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لافـــل حـــدّه
ولاحكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــز إلى أرض العـــــدوّ ولاتهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــارم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــا الأبـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الابـــاهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعـــادك حيـــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنـــك قـــد لاقيـــت مـــا اللّـــه حـــاتـــم
بـــوقـــت أصـــاب الارض مـــا قـــد أصـــابها
وحلـــت بها تلـــك الـــدواهـــي العظـــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــايـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا الانســـالم
وغـــارا تنـــا ليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
وتحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــا سيـــدا يسمـــو بهمـــ
ـــته إلى الـــرتـــب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحر
م غيره أوفى مـــزيـــه
أنـــت الصـــديـــق وإن بعـــد
ت وصـــاحـــب الشيـــم الـــرضيـــه
ننبيـــك إن جيـــوشنـــا
فعلـــت فعـــال الجاهليـــة

سـارت إلى الأعـداء مـن
أبطـالها مـائتـا سريـه
فتغير هـذي بكـرة
وتعـاود الأخـرى عشيـه
فـالـويـل منهـا للفـرنـ
ـج فقـد لقـوا جهـد البليـة
جـاءت رؤوسهـم تلـو
ح على رؤوس السمهـريـة
وقـلائع قـد قسمـت
بين الجنـود على السـويـه
وخـلائق كثرت مـن الـ
ـلأسرى تقـاد إلى المنيـة
فـانهض فقـد أنبيـت مجـ
ـد الديـن بـالحال الجليـه
وألم بنـور الـديـن واعـ
ـلمه بهاتيـك القضيـة
فهـو الـذي مـازال تخـ
ـلص منـه أفعـالا ونيـه
ويبيـد جمع الكفـر بـالـ
ـبيض الـرقـاق المشرفيـه
فعسـاه ينهـض نهضـة
يفنـي بها تلـك البقيـة
إمـا لنصرة دينـه
أو ملكـه أو للحميـه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـذي أنـت على البعـ
ـد صـديـق لنـا ونعـم الصـديـق

ليس فيما تأتيه من بر أفعا
لك للطالب الحقوق عقوق

فلهذا نرى مواصلة الكتـ
ـب تباعا إليك مما يليق

ونناجيك بالمهمات إذ أنـ
ـت بالقائها إليك خليقٌ

وأهم المهم أمر جهاد الـ
ـكفر فاسمع فعندنا التحقيق

واصلتهم منا السرايا فأشجا
هم بكور منا لهم وطروق

وأباحت ديارهم فأباد الـ
ـقوم قتل ملازم وحريق

وانتظرنا بزحفنا برء نور الديـ
ـن علما منا بأن سيفيق

وهو الآن في أمان من اللّـ
ـه وما يعتريه أمر يعوق

ما لهذا المهم مثلك مجد الديـ
ـن فانهض به فأنت حقيق

قل له لاعداه رأي ولازا
ل لديه لكل خير طريق

أنت في حسم داء طاغية الكـ
ـفار ذاك المرجوّ والمرموق

فاغتنم بالجهاد أجرك كي يلـ
ـقى رفيقاً له ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أمير الجيوش ما زال للاسـ
ـلام والدين منك ركن وثيق

أسمعت دعوة الجهاد فلبا
ها مليك بالمكرمات خليق

ملـــك عـــادل أنـــار بـــه الـــديـــ
ـــــن فعـــم الاســـلام منـــه الشروق
مـــالـــه عـــن جهـــاده الكفـــر والعـــد
ل وفعـــل الخيرات شغـــل يعـــوق
هـــو مثـــل الحســـام صـــدر صقيـــل
لين مســـــه وحـــــد زليـــــق
ذو أنـــــاة يخالها الغـــــر اهما
لا وفيهـــا حتـــف الأعـــادي المحيـــق
فـــاسلما الـــلاســـلام كهفين مـــاطـــ
ـــرز ثـــوب الظـــلام بـــرق خفـــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:

قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي
قـــد حـــاز في الفضـــل الكمالا
فلـــذاك قـــد أضحـــى الأنـــا
م على مكـــارمـــه عيـــالا
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الـــ
ـــلأشعار مسرعـــة عجـــالا
وصـــددت عنهـــا حين را
مـــت مـــن محاسنـــك الـــوصـــالا
هـــلا بـــذلـــت لنـــا مقـــا
لا حين لم تبـــذل فعـــالا
مـــع أننـــا نـــوليـــك صبـــ
ـــرا في المودّة واحتمالا
ونبثـــك الأخبـــار إن
أضحـــت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــانـــا القصـــ
ـــد الشـــام تعتســـف الـــرمـــالا
تـــزجـــي إلى الأعـــداء جـــر
د الخيـــل اتبـــاعـــاتـــوالا

تمضي خفافا للمغا
ر بها وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الاعا
دي من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر
لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عمن يحـ
ـف بها يمينا أو شمالا
نهضت إليها خيلنا
من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة وبيـ
ـض الهند والاسل النهالا
فغدت كأن لم يعهدوا
في أرضها حيا حلالا
هذا وفي تل العجو
ل ملأن بالقتلى التلالا
إذ مر مري ليس يلـ
ـوي نحور رفقته اشتغالا
واستاق عسكر نا له
أهلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فرنج الطا
ئي طال بهم وصالا
سارت إلى أرض الخلي
ـل فلم تدع فيها خلالا
فلو أن نور الدين يجـ
ـعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الاجناد جهـ
ـراً كي ينازلهم نزالا
ووفى لنا ولأهل دولـ
ـته بما قد كان قالا

لـــــرأيـــــت لـــــلافـــــرنـــــج طـــــ
ـــــــراً في معـــــاقلهـــــا اعتقـــــالا
وتجهـــــــــــزوا للسير نحـــــــــــ
ـــــــو الغـــــرب أو قصـــــدوا الشمالا
و إذا أبـــــــــى الا اطـــــــــرا
حـــــاً للنصيحـــــة واعتـــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكـــــم خـــــالقنـــــا تعـــــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يـــــا أشرف الـــــوزراء أخـــــ
ـــــلاقا وأكـــــرمهـــــم فعـــــالا
نبهـــــت عبـــــداطـــــالما
نبهتـــــه قـــــدرا وحـــــالا
وعتبتـــــه فـــــانلتـــــه
فخـــــراومجدالـــــن ينـــــالا
لكـــــن ذاك العتـــــب يشـــــ
ـــــعل في جـــــوانبـــــه اشتعـــــالا
أسفـــــا لجد حـــــال عنـــــ
ـــــه إلى مســـــاءتـــــه ومـــــالا
أمـــــا السرايـــــا حين تـــــر
جـــــع بعـــــد خفتهـــــا ثقـــــالا
فكـــــذاك عـــــادوفـــــود بـــــا
بـــــك مثقلين ثنـــــاومـــــالا
ومسيرهـــــــــا في كـــــــــل أر
ض تبتغـــــي فيهـــــا المجـــــالا
فكـــــذاك فضلـــــك مثـــــل عـــــد
لـــــك في الـــــدنـــــا ســـــارا وجـــــالا
فـــــاسلـــــم لنـــــا حتـــــى نـــــرى
لـــــك في بنـــــي الـــــدنيـــــا مثـــــالا

واشـــددیـــدیـــك بـــودنـــو
ر الـــديـــن والـــق بـــه الـــرجـــالا
فهـــو المحـــامـــي عـــن بـــلا
د الشـــام جمعـــا أن يـــذالا
ومبيد املاك الفرنـ
ـــج وجمعهـــم حـــالا فحـــالا
ملـــك يتيـــه الـــدهـــر والـــدنـــ
ـــيا بـــدولتـــه اختيـــالا
جمع الخلال الصـــالحا
ت فلـــم يـــدع منهـــا خـــلالا
فـــإذا بـــدا للنـــاظـــريـــ
ـــن رأت عيـــونهم الكمالا
فبقيتما للمسلمـــ
ـــين حما وللـــدنيـــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:

ولعمـــري إن المنـــاصـــح في الـــديـــ
ـــن على اللّـــه أجـــره محســـوب
وجهـــاد العـــدّو بـــالفعـــل والقـــو
ل على كـــل مسلـــم مكتـــوب
ولـــك الـــرتبـــة العليـــة في الامـــ
ـــرين مـــذ كنـــت إذ تشـــب الحروب
أنـــت فيهـــا الشجـــاع مـــالـــك في الطعـــ
ـــن ولا في الضراب يـــومـــا ضريـــب
وإذا مـــا قـــرضـــت فـــالشـــاعـــر المفـــ
ـــلق فيما يقـــولـــه والخطيـــب
وإذا مـــا أشرت فـــالحزم لا ينـــ
ـــكر إن التـــدبير منـــك مصيـــب

لـــك رأي بقظـــان إن ضعـــف الـــرأ
ي على حـــاملي الصليـــب صليـــب
فـــانهض الآن مسرعـــا فبـــأمثـــا
لـــك مـــازال يـــدرك المطلـــوب
ألـــق منـــا رســـالـــة عنـــد نـــور الـــديـــ
ـــن مـــا في القـــائهـــا مـــا يـــريـــب
قـــل لـــه دام ملكـــه وعليـــه
مـــن لبـــاس الاقبـــال بـــرد قشيـــب
أيها العـــادل الـــذي هـــو للـــديـــ
ـــن شبـــاب وللحـــروب شبيـــب
والـــذي لم يـــزل قـــديما عـــن الاســـ
ـــلام بـــالعـــزم منـــه تجلى الكـــروب
وغـــدا منـــه للفـــرنـــج إذا الا
قـــوه يـــوم مـــن الـــزمـــان عصيـــب
إن يـــرم نـــزف حقـــدهـــم فـــلا شطـــا
ن قنـــاه في كـــل قلـــب قليـــب
غيرنـــا مـــن يقـــول مـــا ليـــس يمضيـــ
ـــه بفعـــل وغيرك المكـــذوب
قـــد كتبنـــا إليـــك مـــا وضـــح الآ
ن بماذا عـــن الكتـــاب تجيـــب
قصـــدنـــا أن يكـــون منـــا ومنكـــم
أجـــل في مسيرنـــا مضروب
فلـــدينـــا مـــن العســـاكـــر مـــاضـــا
ق بـــأدنـــاهـــم الفضـــاء الـــرحيـــب
وعلينـــا أن يستهـــل على الشـــا
م مكـــان الغيـــوث مـــال صبيـــب
أوتـــراهـــا مثـــل العـــروس ثـــراهـــا
كلـــه مـــن دم العـــدا مخضـــوب

لطنين السيـــــوف في فلـــــق الصبـــــ
ـــــح على هـــام أهلهـــا تطـــريـــب
ولجمـــع الحشـــود مـــن كـــل حصـــن
سلـــــــب مهمـــــــل لهم ونهوب
وبحـــول الالـــه ذاك ومـــن غـــا
لـــب ربي فـــانـــه مغلـــوب

وكتب إليه أيضا:

أيها الســـائر المجـــدّ إلى الشـــا
م تبـــاري ركـــابـــه والخيـــول
خـــذ على بلـــدة بها دار مجد الـــديـــ
ـــن لاريـــع ربعهـــا المأهـــول
وتعـــرف أخبـــاره واقـــرة منـــ
ـــا ســـلامـــا فيـــه العتـــاب يجول
قـــل لـــه أنـــت نعـــم ذخـــر الصـــديـــق الـــ
ـــيوم لكنـــك الصـــديـــق الملـــول
مـــا ظننـــا بـــأن حـــالـــك في القـــر
ب ولا البعـــــــد بـــــــا الملال يحول
لاكتـــــاب ولاجـــــواب ولا قـــــو
ل بـــــه لليقين منـــــه حصـــــول
غير أنـــا نـــواصـــل الكتـــب إذ قصـــ
ـــر منـــك البر الكـــريـــم الـــوصـــول
ذاكـــريـــن الفتـــح الـــذي فتـــح اللّـــ
ـــه علينـــا فـــالفضـــل منـــه جميـــل
جـــاءنـــا بعـــد مـــا ذكـــرنـــاه في كتـــ
ـــب أتـــاكـــم بهن منـــا رســـول
أن بعـــض الاسطـــول نـــال مـــن الأفـــ
ـــرنج مـــا لا ينـــالـــه التـــأميـــل

سـار في قلـة ومـازال بـاللّـ
ـه وصـدق النيـات تنمـى القليـل
ويقـايـا الاسطـول ليـس لـه بعـ
ـد إلى جـانـب الشـآم وصـول
فحـوى مـن عكـا وانطـرسـوس
عـدّة لم يحط بها التحصيـل
جمع ديـويـة بهم كـانـت الافـ
ـرنج تسطـو على الـورى وتصـول
قيـد في وسطهـم مقـدّمهـم يهـ
ـدى إلينـا وجيـده مغلـول
بعـد مثـوى جماعـة هلكـوا بـالـ
ـسيف منهـا الغـريـق والمفلـول
هـذه نعمـة الالـه وتعـديـ
ـد أيـادي الالـه شيء يطـول
أبلغـن قـولنـا إلى الملـك العـا
دل فهـو المرجـوّ والمأمـول
قـل لـه كـم تماطـل الـديـن في الكفـ
ـار فـاحـذر أن يغضـب الممطـول
سر إلى القـدس واحتسـب ذاك في اللّـ
ـه فبـالسير منـك يشفـى الغليـل
وإذا مـا أبطـا مسيرك فـاللّـ
ـه إذا احسبنـا ونعـم الـوكيـل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـا أمير الجيـوش يـا أعـدل الحـ
ـكام في فعلـه وفيما يقـول
أنـت حليـت بـالمكـارم أهـل الـ
ـعصر حتـى تعـرف المجهـول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهوا المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل[٨٦]

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:

هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا لنور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط[٨٧]
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تـــأمـــل فكـــم شرط شرطـــت عليهـــم
قـــديماوكـــم غـــدر بـــه نقـــض الشرط
وشمـــر فـــانـــا قـــداعنـــا بكـــل مـــا
ســـألـت وجهـــزنـــا الجيـــوش ولـــن يبطـــو ا(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:

انظـــــر إلى ذي الـــــدار كـــــم
قـــد حـــل ســـاحتهـــا وزيـــر
ولكـــــم تبختر آمنـــــا
وســـــط الصفـــــوف بها أمير
ذهبـــــوا فـــــلا واللّـــــه مـــــا
يبقـــــى الصغير ولا الكبير
ولمثـــل مـــا صـــاروا إليـــ
ـــه مـــن الفنـــاء غـــداً نصير (٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته، ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدى الفرنج، وتفرق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصلح والمهادنة، وحرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكر أبو الفتح بحر بن أبى الحسن بن بحر الاشتري المعيد كان بالمدرسة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الدين وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضى اللّه بانهزام عسكر المسلمين وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبد الضعيف ملكتني هذه الولاية، واعطيتني هذه النيابة، وعمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى اللّه عليه وسلم، ولا أملك إلاّ نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذابا عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك ورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا، وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه من الوصول، فاتصل به خبر عوده إلى مقرّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسد الدين إلى دمشق، ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره متوجها إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قال: وهذ الوزير قد ألهمه اللّه تعالى من جميل الأفعال وحميد الخلال وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البر والصدقات والصلات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السلام، ومكة ذات الحرم والبيت المعظم شرفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره وتضاعف عليه حمده وشكره، واجتمع مع نور الدين، وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقاه موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار ابن الصوفي وأكرم غاية الإكرام، وأعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين وسير معه الأمير أسد الدين شيركوه رسولا إلى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سنية، فسار وعاد إلى حلب مكرما فوجد نور الدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حوران ، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر للاغارة على بلد صيدا ، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

obeikandl.com

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة ، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد باللّه إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـإمامة فينا بعده العاضد الطهر
امام هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

obeikandl.com

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال.وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهرا فلما ظعنتم استـ
ـقرت بقلبي وحشة للتفرق

وأعجب شيء أنني يوم بينكم
بقيت وقلبي بين جنبي مابقي

أرى البعد ما بيني وبين أحبتي
كبعد المدى ما بين غرب ومشرق

ألا جدّدي يانفس وجداً وحسرة
فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك ، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعـــوني فما هـــذا بـــوقـــت بكـــائه
سيـــأتيكـــم طـــل البكـــاء ووابلـــه
ولم لا نبكيـــــه وننـــــدب فقـــــده
وأولادنـــــا أيتـــــامـــــه وأراملـــــه
فيـــاليـــت شعـــري بعـــد حســـن فعـــالـــه
وقـــد غـــاب عنـــا مـــا بنـــا الـــدهـــر فـــاعلـــه
ايكـــرم مثـــوى ضيفكـــم وغـــريبكـــم
فيسكـــن أم تطـــوى ببين مـــراحلـــه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طمـــع المرء في الحيـــاة غـــرور
وطـــويـــل الآمـــال فيهـــا قصير

ومنها:

ولكـــم قـــدّر الفتـــى فـــأتتـــه
نـــوب لم يحط بها التقـــديـــر

ومنها:

فـــض ختـــم الحيـــاة عنـــك حمام
لا يـــراعـــي أذنـــا ولا يستشير
مـــا يخطـــى إلى جـــلالـــك اليـــوم إلا
قـــدر أمـــره علينـــا قـــديـــر
يـــا أمير الجيـــوش هـــل لـــك علـــم
أن حـــر الاســـى علينـــا أمير
إنّ قبراً حللتـــــه لغنـــــي
إن دهـــــراً فـــــارقتـــــه لفقير
انطـــوى ذلـــك البســـاط وعهـــدي
وهـــو بـــالعلـــم والنـــدى مغمـــور
لا تظـــن الأيـــام أنـــك ميـــت
لم يمـــت مـــن ثنـــاؤه منشـــور

إن مضـــى كـــافـــل فهـــذا كفيـــل
أو وزيـــر يغـــب فهـــذا وزيـــر
دولـــة صـــالحيـــة خلفتهـــا
دولـــة عـــادليـــة لاتجور
مـــاشكـــونـــا كسر النـــوائب حتـــى
قيـــل في الحال كسركـــم مجبـــور
نصر النـــاصر العُلى بـــالعـــوالي
ولنعـــم المولى ونعـــم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قـــد كنـــت أشرق مـــن ثماد مـــدامعـــي
أسفـــا فكيـــف وقـــد طمـــى التيـــار
عـــم الـــورى يـــوم الخميـــس وخصنـــي
خطـــب بـــأنـــف الـــدهـــر منـــه صغـــار
مـــا أوحـــش الـــدنيـــا غـــديـــة فـــارقـــت
قطبـــار حـــى الـــدنيـــا عليـــه تـــدار
خـــربـــت ربـــوع المكـــرمـــات لـــواحـــد
عمـــرت بـــه الاجـــداث وهـــي قفـــار
نعـــش الجدود العـــاثـــرات مشيـــع
عشيـــت بـــرؤيـــة نعشـــه الابصـــار
نعـــش يـــودّ بنـــات نعـــش لـــو غـــدت
ونظـــامهـــا أسفـــا عليـــه نثـــار
شخـــص الأنـــام إليـــه تحت جنـــازة
خفضـــت لـــرفعـــة قـــدرهـــا الاقـــدار
ســـار الامـــام أمـــامهـــا فعلمـــت أن
قـــد شيعتهـــا الخمســـة الأبـــرار
ومشـــى الملـــوك بها حفـــاة بعـــدمـــا
حفـــت مـــلائكـــة بها أطهـــار

فكأنها تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينة ووقار
لكنه ماضم غير بقية الاسـ
ـلام وهو الصالح المختار
اقطنته دار الوزارة ريثما
بنيت لنقلته الكريمة دار
وتغايرا لهرمان والحرمان في
تابوته وعلى الكريم يغار
أثرت مصراً منه بالشرف الذي
حسدت قرافتها له الأمصار
وجعلتها أمنا به ومثابة
ترجو مثابة قصدها الزوّار
قد قلت إن نقلوه نقلة ظاعن
نزحت به دار وشط مزار
ماكان إلاّ السيف جدّد غمده
بسواه وهو الصارم البتار
والبدر فارق برجه متبدّلا
برجابه تتشعشع الأنوار
والغيث روّى بلدة ثم انتحى
أخرى فنوء سحابه مدرار
يامسبل الأستار دون جلاله
ماذا الذي رفعت له الاستار
مالي أرى الزوّار بعد مهابة
فوضى ولا أذن ولا استئمار
غضب الاله على رجال أقدموا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
لاتعجبا لقذار ناقة صالح
فلكل دهر ناقة وقذار

واخجلتا اللبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا الـ
ـخطيّ متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبدا وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعا
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدوّ ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلـــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى
حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخـــــار
ولقـــــد أقـــــر العين بعـــــدك أروع
لـــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــــرار
النـــــاصر الهادي الـــــذي حسنـــــاتـــــه
عـــــن سيئـــــات زمـــــاننـــــا أعـــــذار
ولما استقـــــام لحفـــــظ أمـــــة أحمد
عمـــــرت بـــــه الأوطـــــان والأوطـــــار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
عليّ وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور

عمـــــروا وشـــــادوا مـــــاتـــــرا
ه مـــــن المنـــــازل والقصـــــور
وتحولـــــوا مـــــن بعـــــد سكـــــ
ـــــناها إلى سكـــــنى القبـــــور (٩٤)

قلت : قال ابـن أبي عقيل هذا هو أبـو الحسن محمد بن عبـد الله بن عياض بـن أبي عقيل، صـاحب صـور، ويلقب عين الـدولة ، مـات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حص الأكراد، وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فكبسوهم،فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحه فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتلة في السوقة والغلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لايقف دون حلب، وكان رحمه اللّه أشجع من ذلك وأقوى عزما، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، واللّه لاأستظل بجدار حتى أخذ بثار الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأما من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده من القوّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوا من لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله
عزم وعزم وبأس غير منتقل
وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا ألقى وقسيّ غير موترة
والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر
بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل
وبني الأصافر ما نلتم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلو من العين إلاّ غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند أهونه
البيض كالبيض والأدراع كالحلل
ملك بعيد من الإدناس ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت
والسيف ما فل والأطواد لم تزل
وكم تجلت بنور الدين من ظلم
وانجاب ما كان للاضلال من ظلل
قل للمولين: كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بملككم لذتم إلى الجبل
أسلمتموه وليتم فأسلمكم
بثبتة لو بغاها الطود لم ينل
فقام فرداً وقد ولت جحافله
فكان من نفسه في جحفل زجل
في مشهد لوليوث الغيل تشهده
خرّت لأذقانها من شدّة الوهل
وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد
طارت قلوب على بعد من الوجل
يعود عنهم رويداً غير مكترث
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفل
يزداد قدماً إليهم من تيقنه
أن التأخر لا يحمى من الأجل
ما كان أقربهم من أسر أبعدكم
لو أنهم لو يكونوا منه في شغل
ثباته في صدور الخيل أنقذكم
لا تحسبوا وثبات الضمر الذلل
ما كل حين تصاب الأسد غافلة
ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل
واللّه عونك فيما أنت مزمعه
كما أعانك في أيامك الأول

كـــم قـــد ملكـــت لهم ملكـــا بـــلا عـــوض
وحـــزت مـــن بلـــد منهـــا بـــلا بـــدل
وكـــم سقيـــت العـــوالي مـــن طلى ملـــك
وكـــم قـــريـــت العـــوافي مـــن قـــرابطـــل
لانكبـــت سهمـــك الأقـــدار عـــن غـــرض
ولاثنـــت يـــدك الأيـــام عـــن أمـــل

قلـت: حـاول ابـن أسعـد في هـذه القصيـدة مـا حـاولـه المتنبي في قولـه:(غيرى بأكثـر هذا النـاس ينخدع) القصيـدة، فإن كـل واحد منهما اعتذر عن أصحـابه ومدحهم، وهم المنهـزمون، وقد أحسنا معـا عفا اللّه عنهما، وعبيد اللّه بـن أسعد هذا فقيه فاضـل وشاعر مفلق، كـان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، ولـه ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريـدته فأحسن ذكره وأكثر الثنـاء على علمه وشعره، وسيأتي ذكـره أيضا في هـذا الكتـاب في أخبـار سنة سبعين وسـت وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هـذه السنة ، أعنـي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة تـوفي عبد المؤمـن ابن علي خليفـة المهدي محمد بـن تومـرت ، صاحب المغـرب، وولي بعده ابنه يوسف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر ابناء شاذي من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم، وأصلهما من الأكراد الرّواذية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت ، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ،ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين اليه والى اخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده ، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلبك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين آن تؤخذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد، وكان يخدمه في أيام والده ، فقربه نور الدين وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعاً،وقرباً حتى صار له حمص والرحبةوغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النورية، بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك،فطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى مايراد منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فسيره وكان سبب ذلك أن شاوربن مجير أبا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولهما، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخـــــرى بضرب صـــــادق
أضحـــــى يطير بـــــه غـــــراب الهام
أدركـــــت ثـــــاراوارتجعـــــت وزارة
نـــزعـــا بسيفـــك مـــن يـــدي ضرغـــام

وكان ضرغـام أوّلا من أصحـاب شاور واتبـاعه، وقـد أشار إلى ذلـك عمارة في قوله من قصيدة له:

كـــانـــت وزارتـــك القـــديمـــة مشرعـــا
صفـــواًولكـــن كـــدّرت غـــدرانها
غصبـــت رجـــال تـــاجـــه وسريـــره
مـــن بعـــد مـــا سجـــدت لـــه تيجـــانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزيـــــر تمنتـــــه الـــــوزارة أوّلا
وثـــانيـــة عفـــواًبغير طـــلاب
فخـــانتـــه في الأولى بطـــانـــة ودّه
ورب حبيـــب في قميـــص حبـــاب
وجـــاءتـــه تبغـــي الصلـــح ثـــاني مـــرة
فلـــم يـــرض إلاّ بعـــد ضرب رقـــاب

ولم يغلب وزيـر لهم وعاد غير شاور، وكـان مدّة أخـذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهـي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتـل ولده طـيءّ يوم الجمعة الثـامن والعشريـن من رمضـان، وجاز رأسـه على رمـح تحت الطيقان والنسـاء يـولـولـن بالصراخ، وكـان فيهـن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينســـى وفي العينين صـــورة وجهـــه الـــ
ـــكريم وعهـــد الانتقـــال قـــريـــب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونزعت ملكك من رجال نازعوا
فيه وكنت به أحق وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل
حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة
أمرت نسيم الليل أن لا يبردا
تاريخ هذا نلته في مثله
يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا:

للّه درك موتورا أقضّ به
دست وسرج وأجفان ومضطجع
ما غبت إلاّ يسيرا ثم لحت لنا
والثار مستدرك والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذي يزن
إلاّ كما نلت والآثار تتبع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضا، فأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم، ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّاً، وليس له خندق ولامعقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلاّ وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـــذت مـــن مصر عـــدوا بمثلـــه
فللّـــه مـــن ظفـــر فللـــت ونـــاب
صـــدمـــت جموع الكفـــر والشـــام صـــدمـــة
أقمـــــت بها للقـــــوم ســـــوق ضراب

قد جردت أجناد مصر عزائما
مضاربها في الصخر غير نوابي
تولوا عن الافرنج فادح ثقلها
ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة
ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح
وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته وسكناته، فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم، وخافه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال، وكان ابتداء رحيله عنها، متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مدبراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدّثا بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ما سنذكره، وبقي متخوفا من أسد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:

وهل همّ يوما شيركوه بجلق
إلى الصيد إلاّ ارتاع في مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذي
شذا ذكره في الشرق والغرب سائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جـــــار صرف الـــــردى على جيرون
وسقـــــى أهلهـــا كـــؤوس المنـــون
أصبحـــت جنـــة وامســـت جحيما
تتلظـــى بكـــل قلـــب حـــزيـــن
كيـــف لا تـــذرف الـــدمـــوع عليهـــا
وهـــي في الشـــام نـــزهـــة للعيـــون
حبـــذا حصنهـــا الحصين لقـــد كـــا
ن جمالا لكـــــل حصـــــن حصين
أي سيـــف سطـــا على دار سيـــف
وزبـــون أتـــى بحـــرب زبـــون
خلـــت نيرانها وكـــل ظـــلام
نـــار ليلى تلـــوح للمجنـــون
كـــم غنـــي اليمين أمســـى فقيرا
وفقير أمســـى غنـــي اليمين
كـــل حين لها حـــريـــق جـــديـــد
ليـــت شعـــري مـــاذا لها بعـــد حين
كـــل هـــذا البـــلاء عـــاقبـــة الفســـ
ـــق وشرب الخمـــور والتلحين
ولقـــد ردّهـــا بعـــزم وحـــزم
أســـد الـــديـــن غـــايـــة المسكين
وحمى الجامـــع المقـــدس والمشـــ
ـــهد مـــن جمرهـــا بماء معين
ملـــك فعلـــه بـــدلجة والبـــا
ب فعـــال الامـــام في صفين

فصل

في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه اللّه تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعود المنهزمون في اثارهم، وتأخذهم سيوف اللّه من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين، عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلا وأسراً، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على راجلهم، من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين وبدمائهم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وخضعت رقابهم وذلوا، فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم وعادوا، فبقي العدوّ في الوسط، وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضت العساكر الإسلامية، عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور، فمزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فألقى الفرنج بأيديهم إلى الاسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الاسرى فلم يحصوا كثرة، ويكفيك دليلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية، ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل ، وقال: أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التي لها فهي منيعة، لاتؤخذ إلاّ بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيمند أحب إليّ من مجاورة ملك الروم،وبث سراياه في تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه اللّه لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم اللّه به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيد غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجد تمام يخذل

لو شئتما ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقني فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمر قند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خـــــرّق نيـــــاط قميصـــــه ورداؤه
بعبـــاب زخـــار وهضبـــة يـــذبـــل

قـال العماد: وكنـت أنـا في ذلـك العهـد متفقهـا في بغـداد، واتفـق حضـوري بـالموصل، سنـة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عنـد جمال الديـن بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنـده مع الفقهاء في مسـألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهـــم وقـــد عـــزمـــوا ارتحالا
ثنـــوا عنـــا جمالا لا جمالا
سروا والصبـــح مبيـــض الحواشي
فلما حـــال عهـــد الـوصـــل حـــالا
هـــم اعتـــادوا الملال فكيـــف ملـــوا
وصـــالهم ومـــا ملـــوا الملالا
أحـــادي عيسهـــم بـــاللّـــه رفقـــا
فـــإن السير أورثهـــا الكـــلالا
وعـــج نحـــو الأراك بها فـــإني
أراه لاجتماع الشمـــل فـــألا
سقـــى صـــوب الحيـــا تلعـــات نجـــد
وحيـــا بـــالحمـــى تلـــك التـــلالا
أخـــلائي وهـــل في النـــاس خـــل
بـــه أخلـــو مـــن الأحـــزان بـــالا
لئـــن لم أشـــف صـــدري مـــن حســـودي
ولم أذق العـــدى داء عضـــالا
فـــلا أدركـــت مـــن أدبي مـــرادا
ولا صـــادفـــت مـــن حسبـــي منـــالا
ولا وخـــدت إليكـــم بي جمال
ولا واليـــت مـــولانـــا الجمالا
هـــو المغنـــي إذا مـــا المرء أقـــوى
هـــو المنجـــي إذا مـــا الخطـــب هـــالا

وقـــائلـــة أفي الـــدنيـــا كـــريـــم
ســـــواه فقلـــــت: لا وأبي العـــــلا لا
أطلـــت على الـــورى كـــرمـــاً وفخـــراً
كـــذلـــك مـــن حـــوى هـــذيـــن طـــالا
وخـــرت المجـــد عـــن كســـب وارث
فيـــا صـــدر الـــورى خـــرت الكمالا
خصصـــت بكـــل منقبـــة وفضـــل
تعـــالى مـــن حبـــاك بـــه تعـــالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:

يهوى تجنيـــــه والصـــــدور كما
يهوى المعـــالي محمـــد بـــن علي
جمال ديـــن الإلـــه خير فتـــى
للـــرزق أقـــلامـــه ولـــلأجـــل
معطـــي القـــرى والقـــرى لقـــاصـــده
مـــن غير مـــنّ والخيـــل والخول
مثـــل فتـــوح الفـــاروق نـــائلـــه
شرقـــا وغـــربـــا في السهـــل والجبـــل
مـــن قـــال لم يحوذا ويسكـــن ذا
أصبـــح ممـــا يقـــول في خجـــل
محمـــد خـــاتـــم الكـــرام كما
سميـــه كـــان خـــاتـــم الـــرسـل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:

كســـى الحرمين لبســـة عبـــد شمـــس
وهـــاشـــم غـــرّتي نســـل الخليـــل
وللبلـــد الأمين أجـــدّ أمنـــا
تكنـــف مثلـــه جـــدث الـــرسـول

عشيتـــــم يـــــاولاة الأمـــــر عما
أتيـــح لـــه مـــن الأثـــر الجميـــل
وطـــارلها وأشفقتـــم فشـــدالـــ
ـــيدين على عـــرى المجـــد الأثيـــل
بيـــوت بـــالحجـــاز مقـــدّســـات
رمـــاهـــا الـــدهـــر بـــالخطـــب الجليـــل
وكـــان إذا لهنّ فصـــاب صـــونـــا
لمن آوتـــه مـــن ولـــد البتـــول
مـــآثـــر بـــاقيـــات يـــوم يجنـــى الـــ
ـــمقال ويجتنـــى طيـــب المقيـــل
وكـــم للمـــوصـــل الحدبـــاء ممـــا
تنيـــل يـــداه مـــن ريـــف ونيـــل
بـــرود الصفـــح ملتهـــب الحواشي
مهيـــب البطـــش فـــراس الـــدخـــول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:

أغـــر يبصر منـــه النـــاس في رجـــل
والليـــث في بشر والبـــدر في غصـــن
سما بهمتـــه في المكـــرمـــات إلى
عليـــاء يقصر عنهـــا همة الـــزمـــن
يلقـــاك واضـــح ليـــل الفكـــر راجـــح نيـــ
ـــل الكـــف طـــاهـــر ذيـــل السر والعلـــن
مـــاضي العـــزيمـــة ميمـــون النقيبـــة ريـــ
ـــبال الكتيبـــة عين القـــائل اللســـن
إذا تكلـــم واستحليـــت غـــرتـــه
في محفـــل رحـــت حـــالي العين والأذن
كـــأن في الـــدســـت منـــه حين تنظـــره
شمـــس النهـــار وصـــوب العـــارض الهتـــن

قـال ابـن الاثير: وفيهـا في شعبـان من هـذه السنـة وهـي سنـة تسـع

وخمسين وخمسمائة توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الرحبة، فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكفرتوثي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى أتابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولدي الشهيد سيف الدين، ثم قطب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه، ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليه زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهي، على خلاف غرض زين الدين، فبقي جمال الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر، كريم الورد والصدر، عديم النظير في سعة نفس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه، ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخرته مدّة حبسه، وكان يقول: كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، قال: فلما مرض قال لي بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني، فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثله قد سقط، فقلت له: قد جاء الطائر، فاستبشر، ثم قال،

جاء الحق، وأقبل على الشهادة، وذكر اللّه تعالى، وتوفي فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها في التربة التي عملها، فإن أنا مت فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه، فإذا شاب قد ارتفع إلى موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى بره فوق الركاب ونائله
يمرّ على الوادي فتثني رماله
عليه وفي النادي فتبكي أراملـه

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم،وحملوه إلى المدينةفصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلت: كذا قال ابن الاثير، ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لانفس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال، رحيما بالناس ومتعطفا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله

الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى، وغرم عليه أموالا عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر اللّه هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان في طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم، رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له، لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب، لايتركون لأحد منا ما يواريه ويشبع جوعته، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكان الخطيب في المدينة يقول في خطبته: اللهم صن حرم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلاّ هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سوى الإدرارات والتعهدات قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلاّ أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه، وبنى أيضا جسرا على نهر الباريا عند الجزيرة أيضا، وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، ويكفيه أن صدر الدين الخجندي رئيس أصحاب الشافعي رضي اللّه عنه بأصبهان ، وابن الكافي قاضي قضاة همذان قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية ، وصارت الموصل في أيامه مقصداً وملجأ، وكان أحب الاشياء إليه إخراج المال من الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكى لي والدي قال: كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قال: وحكى لي من اثق إليه من العدول بالموصل: أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال له:تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره، فلم يمض إلاّ أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول: واللّه ما عندي شيء ولكن خذ هذه المحافير التي في داري فبيعوها وتصدّقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه

ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للرسول: قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الجمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا احضر لك فلانا العربي ، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة أصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه، قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئا وتردّد إليه عدة أيام، ثم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه.فقيل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد
ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتي لك تأبى أن تسامحني
بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك الله خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

مـــا حـــط قـــدرك مـــن أوج العلى القـــدر
كـــــلا ولا غيرت أفعـــــالـــــك الغير
أنـــت الـــذي عـــم أهـــل الأرض نـــائلـــه
ولم ينـــــل شـــــأوه في ســـــؤدد بشر
ســـارت صفـــاتـــك في الآفـــاق واتضحـــت
وصـــدّق السمـــع عنهـــا مـــا رأى البصر
فـــاصبر لصرف زمـــان قـــد منيـــت بـــه
فـــاخـــر الصبر يـــاطـــود النهـــى الظفـــر
فما تـــرى أحـــداً في الخلـــق يسلـــم مـــن
صروف دهـــــر لـــــه في أهلـــــه غير
سعـــوا بقصـــدك سراً واستتـــب لهم
ولـــو سعـــوا نحـــوه جهـــراً لما قـــدروا
لـــولا الأمـــاني التـــي تحيـــى النفـــوس بها
لمت مـــن لـــوعـــة في القلـــب تستعـــر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:

وأصـــدق النـــاس في حفـــظ العهـــود إذا
ميـــزت بـــالفكـــر أحـــوال الـــورى عمـــر
الـــزاهـــد العـــابـــد البرّ التقـــي ومـــن
يـــــزوره ويقـــــوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:

لاخير في الـــدنيـــا ولا أهلهـــا
بعـــد جمال الـــديـــن والصـــالـــح
بحـــران لـــولا دمـــع بـــاكيهما
مـــا كـــان مـــاء البحـــر بـــالمالـــح

قال ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاققة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطُب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـاية أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليـه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيها من الحماة، الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك فإنك الـ
ـمهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضللته
بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقد
نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجـــرجـــرى لسريـــر ملكـــك إنـــه
كسريـــره عـــن كـــل جـــدر عـــال
فلـــو البحـــار السبعـــة استهـــوينـــه
وأمـــــرتهنّ قـــــذفنـــــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:

أخـــرســـت شقشقـــة الضـــلال وقـــدتـــه
قـــود الـــذلـــول أطـــاع بعـــد صيـــال
ورميـــــت دار المشركين بصيلـــــم
القحـــت فيهـــا الحرب بعـــد جيـــال
وسعـــرت بين تـــريبهـــم وتـــرابهم
ذعـــر ايشيـــب نـــواصي الاطفـــال
فـــوق الخطيـــم وقـــد خطمـــت زعيمهـــم
ضربـــا ســـوابقـــه بغير تـــوالي
ضربـــا مـــلأت فـــرنجـــة مـــن جـــرّه
رهبـــاً بـــه سيـــف الصقـــالـــب صـــالي
وبفـــج حـــارم أحـــرمـــت لقـــراعهـــم
هيـــم أحلـــن النـــوم غير حـــلال
عجمـــوا على جسر الحديـــد حـــديـــدهـــا
نبعـــا يعـــاذمـــه أديـــر دصـــال

زلـــزلـــت أرضهـــم بـــوقـــع صـــواعـــق
أعطيننـــــا أمنـــــا مـــــن الـــــزلـــــزال
في مـــــأزق شمـــــرت ذيلـــــك تحتـــــه
والنصر فـــوقـــك مسبـــل الاذيـــال
في دولـــــة غـــــراء محمـــــوديـــــة
سحبـــــت رداء الحمـــــد غير مـــــذال
تنسي الفتـــــــــوح وتجتنـــــــــي
زهـــــر المقـــــال بـبـــاهـــــر الأفعـــــال
لبســـت بنـــور الـــديـــن نـــور حـــدائق
ثمـــــراتهن غـــــرائب الافضـــــال
ملـــــك تحجـــــب في السريـــــر بـــــزأرة
زرّت حـــــواشيهـــــا على ريبـــــال
تنجـــاب عـــن ذي لبـــدتين شـــذاتـــه
في بـــــردتي بـــــدل مـــــن الأبـــــدال
رفـــع الـــرواق بـــروق أنطـــاكيـــة
فـــرمـــى الخليـــج بمـــرهـــق البلبـــال
بـــــدر لأربـــــع عشرة أقتبـــس السنـــا
مـــــن خمس عشرة ســـورة الأنفـــال
فـــوز المآل أخـــاضـــه مـــاء الطلى
وســـــواه يقعـــــده احتيـــــاز المال
متقســـــــــــم بين القسيمين العلى
عـــن عـــمّ عـــم أو مخايـــل خـــال
لازلـــت تطلـــع مـــن ثنـــايـــا جحفـــل
يقفـــولـــواءك كـــاللـــوى المنهـــال
لـــك أن تطـــل على الكـــواكـــب راقيـــا
ولحاســـديـــك بكـــا على الأطـــلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

للّه شبلا أسد خادر
ما فيهما جبن ولا شح
ما أقبلا إلاّ وقال الورى
قد جاء نصر اللّه والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نورالدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبى السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين ، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
ومالهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما تراماى البربري بجهله
إلى فتكة مارامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد مالوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعـــدت إلى جســـم الـــوزارة روحهـــا
ومـــا كـــان يـــرجـــى بعثهـــا ونشـــورهـــا
أقـــامـــت زمـــانـــا عنـــد غيرك طـــامثـــا
فهـــذا الأوان قـــرؤهـــا وطهـــورهـــا
مـــن العـــدل أن يحظـــى بهـا مستحقهـــا
ويخلعهـــا مـــردودة مستعيرهـــا
إذا ملـــك الحسنـــاء مـــن ليـــس كفـــؤهـــا
أشـــار عليـــه بـــالطـــلاق مشيرهـــا

وله يشكو طبيبا:

وأصـــل بليتـــي مـــن قـــد غـــزاني
مـــن السقـــم الملـــح بعسكـــريـــن
طبيـــب طبـــه كغـــراب بين
يفـــرق بين عـــافيتـــي وبينـــي
أتـــى الحمـــى وقـــد شـــاخـــت وبـــاخـــت
فـــردّ لها الشبـــاب بنسختين
ودبـــرهـــا بتـــدبير لطيـــف
حكـــاه عـــن سنـــان أو حنين
وكـــانـــت تـــوبـــة في كـــل يـــوم
فصيرهـــا بحـــذق نـــوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديوانه، وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لجاجـــة قلـــب مـــا يفيـــق غـــرورهـــا
وحـــاجـــة نفـــس ليـــس يقضـــى يسيرهـــا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنا صفوفا في الديار كأنها
صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح
أهذي التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنة
أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلة
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
ومالي بها علم فهل أنت عالم
أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم في الهجر إنا عصابة
إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ويقول في مديحها:

فقل لليالي كيف شئت تقلبي
ففي يدعبل الساعدين أمورها
أماني في نفس الوزارة بلغت
به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة
إلى خاطب حل عليه سفورها
إذا مثل الأقوام دون عرينه
تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة
ترف على تلك الرؤوس طيورها

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت
مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ
ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ
ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى
حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلاّ أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم في الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له:إن نحن إنهزمنا وهو الذي لاشك فيه فإلى أين نلتجي وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم، وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحا أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم،فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج

ماذكره أسد الدبن، وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثرالمنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديار، فانهزموا أيضا، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان، وأما المصريون والفرنج، فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال، وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، وهذا كله يجري بين الفرنج وبين شاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجره إلى شيء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين في شوال منها، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني مصنف كتابي الفتح والبرق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الى العماد وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه اللّه ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين ، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، ابني شاذي من تكريت بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجم الدين أيوب آنذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب
ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

مـــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بما ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما هما مـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــك مصر ونصر المؤمنين غـــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرمل في النصف من ربيع الأوّل ووصل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأناخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر
أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لـــو في زمـــان رســـول اللّـــه كنـــت أتـــت
في هـــــذه السيرة المحمـــــودة الســـــور
أصبحـــت بـــالعـــدل والاقـــدام منفـــردا
فقـــــل لنـــــا أعليّ أنـــــت أم عمـــــر
اسكنـــــدر ذكـــــروا أخبـــــار حكمتـــــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا
ورستـــم خبرونـــا عـــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر
أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر
سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا
يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر
قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر
شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر
يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر
قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر
ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر
يـــرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر
لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

غـــرســـت في أرض مصر مـــن جســـومهـــم
أشجـــار خـــط لها مـــن هـــامهـــم ثمـــر
وســـال بحـــر نجيـــع في مقـــام وغـــى
بـــه الحديـــد غمام والـــدم المطـــر
انهرت منهـــم دمـــاء بـــالصعيـــد جـــرى
منهـــــا إلى النيـــــل في واديهم نهر
رأوا إليـــك عبـــور النيـــل إذ عـــدمـــوا
نصرا فما عبروا حتـــــى قـــــد اعتبروا
تحت الصـــــوارم هـــــام المشركين كما
تحت الصـــوالـــج يـــومـــا خفـــت الاكـــر
أفنـــت سيـــوفـــك مـــن لاقـــت فـــإن تـــركـــت
قـــومـــا فهـــم نفـــر مـــن قبلهـــا نفـــروا
لم ينـــج إلاّ الـــذي عـــافتـــه مـــن خبـــث
وحـــش الفـــلا وهـــو للمحـــذور منتظـــر
والســـاكنـــون القصـــور القـــاهـــريـــة قـــد
نـــادى القصـــــور عليهـــم أنهم قهـــروا
وشـــاور شـــاوروه في مكـــايـــدهـــم
فكـــاده الكيـــد لما خـــانـــه الحذر
كـــانـــوا مـــن الـــرعـــب مـــوتـــى في جلـــودهـــم
وحين أمنتهـــم مـــن خـــوفهـــم نشروا
وإن مـــن شيركـــوه الشرك منخـــزل
والكفـــر منخـــذل والـــديـــن منتصر
عـــوّل على فئـــة عنـــد اللقـــاء وفـــت
وعـــدّ عـــن تـــركـــمان قبلـــه غـــدروا
وكيـــف يخذل جيـــش أنـــت مـــالكـــه
والقـــائدان لـــه التـــأييـــد والظفـــر
أجـــاب فيـــك إلـــه الخلـــق دعـــوة مـــن
يطيـــب بـــالليـــل مـــن أنفـــاســـه السحـــر

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلتم بمقلتيه فتور
وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير
فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم
وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحنّ إليه
وهو في المهد سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالأمـ
ـس صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم
أمل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاور مثل فرعو
ن فذل اللاجي وعز العبور
شارك المشركين نعيا وقدما
شاركتها قريظة والنضير
والذي يدعي الامامة بالقا
هرة ارتاع أنه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهنفري هانوا ففروا
ومن الأسد كل كلب فرور

إنما كـــــان للكـــــلاب عـــــواء
حيـــث مـــا كـــان لـــلأســـود زئير
وفليـــب عنـــد الفـــرار سليـــب
فهـــو بـــالـــرعـــب مطلـــق مـــأســـور
لم يبقـــوا ســـوى الأصـــاغـــر للسبـــ
ـــــي فـــودوا لـــو أن الكبير صغير
وحميـــت الاسكنـــدريـــة عنهـــم
ورحـــى حـــربهم عليهـــم تـــدور
حـــاصروهـــا ومـــا الـــذي بـــان مـــن ذبـــ
ـــك عنهـــا وحفظهـــا محصـــور
كحصـــار الأحـــزاب طيبـــة قـــدمـــا
ونبـــــي الهدى بها منصـــــور
فـــاشكـــر اللّـــه حيـــث أولاك نصراً
فهـــو نعـــم المولى ونعـــم النصير
ولكـــم أرجـــف الأعـــادي فقلنـــا
مـــا لما تـــذكـــرونـــه تـــأثير
ورقبنـــا كـــالعيـــد عـــودك فـــاليـــو
م بـــه لـــلانـــام عيـــد كبير
عـــاد مـــن مصر يـــوســـف وإلى يعـــ
ـــقوب بـــالتهنيـــات جـــاء البشير
فـــلأيـــوب مـــن إيـــاب صـــلاح الـــ
ـــدين يـــوم بـــه تـــوفى النـــذور
ولكـــم عـــودة إلى مصر بـــالنصـــ
ـــر على ذكـــرهـــا تمر العصـــور
فـــاستردّوا حـــق الإمـــامـــة ممـــن
خـــان فيهـــا فـــإنـــه مستعير
وافترعهـــا بكـــرا لها بمـــدى الـــدهـــ
ـــر رواح في مـــدحكـــم وبكـــور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــــدك انتهـــــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــــألـــــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلهـا طـويلتان جـداً، فانتظمـت معـرفة العماد بصـلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــاقـــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤسـا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاور كـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــازال حتـــى
بنـــا مجداً على السبـــع الطبـــاق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مواقد النيران

ياكاسر الأصنام قم فانهض بنا
حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قد ما فسل عن حارث الجولان

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسند روايتها إلى حسان

مازلزلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائبا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران

عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان

وثللت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران

ولقد أتى الاسطول حين غزابما
لم يأت في حين من الاحيان

وأعـــدّت رســـل ابـــن القسيـــم إليـــه في
شعبـــان كـــي يتـــلاءم الشعبـــان
والفـــال يشهـــد في اسمـــه أن ســـوف يغـــ
ـــــدو الشـــام وهـــو عليكما قسمان
وأراك مـــن بعـــد الشهيـــد أبـــا لـــه
وجعلتـــه مـــن أقـــرب الاخـــوان
وهـــو الـــذي مـــازال يفعـــل في العـــدى
مـــالم يكـــن ليعـــدّ في الامكـــان
قتـــل البرنـــس ومـــن عســـاه أعـــانـــه
لما عســـــا في البغـــي والعـــدوان
وأرى البريـــة حين عـــاد بـــرأســـه
مـــرّ الجنـــى يبـــدو على المرّان
وتعجبـــوا مـــن زرقـــة في طـــرفـــه
وكـــأن فـــوق الـــرمـــح نصـــلا ثـــاني
عجبـــا لجوديـــديـــه إذ يبنـــي العـــلا
والسيـــل يهدم ثـــابـــت الأركـــان
قلـــدت أعنـــاق البريـــة كلهـــا
منـــا تحمـــل ثقلهـــا الثقـــلان
حتى تســـاوى النـاس فيـك وأصبـح الـــ
ـــقاضي بمنـــزلـــة القـريـب الـداني

وفي هذه السنة ذكـر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :

لـــو حفظـــت يـــوم النـــوى عهـــودهـــا
مـــا مطلـــت بـــوصلكـــم وعـــودهـــا
وإنما يحمـــــد عيـــــش بلـــــدة
مـــالكهـــا بعـــدلـــه محمـــودهـــا

مـــؤيـــد أمـــوره بعـــزمـــة
مـــن السمـــوات العلى تـــأييـــدهـــا

آثـــــــاره حميـــــــدة وإنما
للمـــرء مـــن آثـــاره حميـــدهـــا

ان الـــورى بحبـــه وبغضبـــه
يعـــرف مـــن شقيهـــا سعيـــدهـــا

قـــد جـــاءكـــم نـــور مـــن الله فمـــن
بـــه اهتـــدى فـــإنـــه رشيـــدهـــا

جـــلا ظـــلام الظلـــم نـــور الـــديـــن عـــن
أرض الشـــام فلـــه تحميـــدهـــا

إن الـــرعـــايـــا منـــه في رعـــايـــة
ونعمـــة مستـــوجـــب مـــزيـــدهـــا

لنـــومهـــا يسهـــر بـــل لأمنهـــا
يخاف بـــل لخصبهـــا بجـــودهـــا

بـــالـــديـــن والملـــك لـــه قيـــامـــه
والملـــــوك عنهما قعـــودهـــا

ودأبـــه ثلـــم ثغـــور الكفـــر لا
لثـــم ثغـــور نـــافـــع بـــرودهـــا

قـــد أسبـــغ الله لنـــا بعـــدلـــه
ظـــلام أمـــن وارف مـــديـــدهـــا

غـــداملـــوك الـــروم في أولتـــه
وهـــم على رغمهـــم عبيـــدهـــا

لما أبـــت هـــامـــاتهم سجـــودهـــا
لله أضحـــى للظبـــى سجـــودهـــا

إن فـــارقـــت سيـــوفـــه غمـــودهـــا
فـــإنّ هـــامـــاتهم غمـــودهـــا

كـــم مغلقـــات مـــن حصـــون عـــزمـــه
مفتـــاحهـــا وسيفـــه أقليـــدهـــا

قـــدودّت الفـرنـــج لـــو فـرّت نجـــت
منـــك ولكـــن روعهـــا مبيـــدهـــا
قهـــرتها حتـــى لـــودّ حيهـــا
مـــن ذلـــة لـــو أنـــه فقيـــدهـــا
أمـــاتها رعبـــك في حصـــونها
كـــأنما حصـــونها لحودهـــا
وإن مصر الـــك تعنـــو بعـــدمـــا
لسيفـــك الصعـــب عنـــا صعيـــدهـــا
والملـــة الغـــراء خـــال بـــالها
عـــال سناهـــا بـــك حـــال جيـــدهـــا
مفترّة ثغـــورهـــا ممنـــوعـــة
ثغـــورهـــا محفـــوظـــة حـــدودهـــا
وإن بغـــى جـــالـــوتها ضـــلالـــة
فـــأنـــت في إهـــلاكـــه داودهـــا
يـــابـــن قسيـــم الـــدولـــة الملـــك الـــذي
خـــرّت لـــه مـــن الملـــوك صيـــدهـــا
دع العـــدى بغيظهـــا فـــإنما
يـــذيـــب أكبـــاد العـــدى حقـــودهـــا
يـــادولـــة نـــوريـــة أمـــن الـــورى
وخصبهـــا وجـــودهـــا وجـــودهـــا
مـــا مثـــل الـــدنيـــا لمن يجمعهـــا
بـــالحرص إلاّ قـــزة ودودهـــا
أيـــن الـــذي يـــرفضهـــا عـــن قـــدرة
فـــلا يشـــوب زهـــده زهيـــدهـــا
فـــابـــق لنـــا يـــا ملكـــا بقـــاؤه
في كـــل عـــام للـــرعـــايـــا عيـــدهـــا
في نعمـــة جـــديـــدة سعـــودهـــا
ودولـــة سعيـــدة جـــدودهـــا

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة [٩٩] .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لاتنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لاكان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيـــا شرف الـــديـــن إن الشتـــا
بكـــافـــاتـــه كـــف آفـــاقـــه
وكفـــك مـــن كـــرم كـــافهـــا
قـــد كفلـــت لي بكـــافـــاتـــه
وإنـــك مـــن عـــرفـــه شكـــرنـــا
غـــداعـــاجـــزا عـــن مكـــافـــاتـــه

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا مـــا الشتـــاء وأمطـــاره
عـــن الخير حـــابســـة رادعـــه
فكـــافـــاتـــه ألســـت أعطيتهـــا
وحـــوشيـــت مـــن كـــافـــه الـرابعـــة
وكـــف المهـــابـــة والاحتشـــا
م لكفـــي عـــن بـــره مـــانعـــة
وهمة كـــل كـــريـــم النجـــا
ربميســـور أحبـــابـــه قـــانعـــة
ونفسي في بســـط عـــذري إليـــ
ـــه جعلـــت الفـــداء لـــه طـــامعـــه
وشـــوقـــي إلى قـــربـــه زائد
ومعـــذرتي إن جفـــا واسعـــه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيـــا مـــن لـــه همة في العلى
لـــذروتها أبـــدا فـــارعـــه
ومـــن كفـــه ديمـــة مـــاتـــزا
ل بـــالعـــرف هـــاميـــة هـــامعـــه
وللفضـــل في ســـوق أفضـــالـــه
بضـــائع نـــافقـــة نـــافعـــة
وهـــل كـــابـــن عصرون في عصرنـــا
إمـــام أدلتـــه قـــاطعـــة

فخير فـــــــــــــــــوائده جمة
وبحـــــــر مـــــــــواردة واسعـــــــة
أيـــــا شرف الـــــديـــــن شرفتنـــــي
بـــــاهـــــداء زائعـــــة رائعـــــة
أطعـــــت أوامـــــرك الســـــاميـــــا
ت ومـــا بـــرحـــت همتـــي طـــائعـــة
أرى كـــــل جـــــارحـــــة لي تـــــــــــ
ـــــــــــودّ لـــــو أنها أذن ســـــامعـــــه
وأمـــــا الشتـــــاء وكـــــافـــــاتـــــه
وكفـــــك عـــــن كـــــافـــــه الـــــرابعـــــة
فنفسي منـــــزعـــــة بـــــالعفـــــا
ف عنهـــــا وفي غيرهـــــا طـــــامعـــــه
ومـــــاذا تطيـــــق إذا لم تكـــــن
بميســـــور سيـــــدنـــــا قـــــانعـــــه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالـــك فتـــح قلعـــة منبـــج
فليهـــن هـــذا النصر كـــل متـــوج
أعطيـــت هـــذا الفتـــح مفتـــاحـــابـــه
في الملـــك يفتـــح كـــل بـــاب مـــرتـــج
وافى يبشر بـــــــالفتـــــــوح وراءه
فـــانهض إليهـــا بـــالجيـــوش وعـــرج
أبشر فبيـــت القـــدس يتلـــو منبجـــا
ولمنبج كسواه كـــالانمـــوذج

مـا أعجـزتـك الشهـب في أبـراجهـا
طلبـا فكيـف خـوارج في أبـرج
ولَقَـدْ مـن يعصيـك أحقـر أن يـرى
أثـر العبـوس بـوجهـك المتبلـج
لكـن تهذب مـن عصـاك سيـاسـة
في ضمنهـا تقـويـم كـل معـوج
فـانهد إلى البيـت المقـدّس غـازيـا
وعلى طـرابلـس ونـابلـس عـج
قـد سرت في الإسـلام أحسـن سيرة
مـأثـورة وسلكـت أوضـح منهـج
وجميـع مـا استقـريـت مـن سنـن الهدى
جـدّدت منـه كـل رسـم مبهـج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا ووالياً، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:

أدركـت مـن أمـر الـزمـان المشتهـى
وبلغـت مـن نيـل الأمـاني المنتهـى
وبقيـت في كنـف السـلامـة آمنـا
متكـرمـا بـالطبـع لا متكـرهـا
لازلـت نـور الـديـن في فلـك الهدى
ذاغـرّة للعـالمين بهـا البهـا
يـا محيـي العـدل الـذي في ظلـه
مـن عـدلـه رعـت الأسـود مـع المهـا
محمـودا المحمـود مـن أيـامـه
لبهـائهـا ضحـك الـزمـان وقهقهـا
مـولى الـورى مـولى النـدى معلي الهدى
مـردي العـدى مسـدي الجدى معطي المهـا

آراؤه بصـــــوابها مقـــــرونـــــة
وبمقتضـــاهـــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصـــافـــه وحصـــانـــه
متقـــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــاصين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـدت شمـس الضحى خفـي السهـا
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبمالـــه والملـــك منـــه مـــالها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائما
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــر الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــــي فقيرا أو تجبر مـــــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـــن رحمة لصغيرهـــم لم تشتغـــل
عـــن رأفـــة لكبيرهـــم لـــن تشـــدهـــا
بـــاليـــأس عنـــدك أمـــل لم يمتحـــن
بـــالـــردّ دونـــك ســـائل لـــن يجبهـــا
أتعبـــت نفســـك كـــي تنـــال رفـــاهـــة
مـــن ليـــس يتعـــب لا يعيـــش مـــرفهـــا
فقـــت الملـــوك سماحـــة وحماســـة
حتـــى عـــد منـــافيهـــم لـــك مشبهـــا
ولـــك الفخـــار على الجميـــع فـــدونهم
أصبحـــت عـــن كـــل العيـــوب منـــزهـــا
وأراك تحلـــم حين تصبـــح ســـاخطـــا
ويكـــاد غيرك ســـاخطـــا أن يسفهـــا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولافي ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـــت بغلتـــي تشكـــي مـــن العـــر
ى واسراجهـــا بـــلا كنبـــوش
قلـــت كفـــي فخير يـــوميـــك عنـــدي
أن تفـــوزي بـــالتبـــن أو بـــالحشيـــش

وأفـــرحـــي ليلـــة الشعير كما يفـــر
ح قـــوم بليلـــة المأشـــوش
لـــو تبصرت حـــالتـــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
دومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنبـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــــودهمنعـــــوش
والموالي على الأسرة والأعـــــــــــ
داء تحت الهوان فـــــوق النعـــــوش

قال: وأقطع أسد الدين حمص وأعمالها، فسار إليها فسد ثغورها، وضبط أمورها ، وحمى جمهورها، وكان نور الدين قد جدد سورها، وحصن دورها وبلي الفرنج منه بالمغاور ، والمراوغ ذي البأس الدامغ، وسأله نور الدين في السلو عن حب مصر وقال: قد تعبت مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا السؤال بالشفاعة وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة [١٠] قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــا كـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــــــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلا زلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

في نفوس الكفار رعبك قد حل
بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبى رؤوساً وأصناً
مما من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ
ـر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ
ـت من الشرك أيما انقاذ

فصل
في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال: إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابةفأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون أنني لاأعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشدّ على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لاأدري ماتقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفى بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأمورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كو كبري مدّة، ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جدّاً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء (١٠١)

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالا، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
ـشرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
س بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملكك اجتمعا
همتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثوابا وتهدم البيعا

مـــازلـــت ذا فطنـــة مـــؤيـــدة
على غيـــــوب الأسرار مطلعـــــا
ببـــأسـك البيـــض والطلى اصطحبـــت
بعـــد لـــك الـــذئب والطـــلا رتعـــا
كـــم صـــائد لم يقـــع لـــه قنـــص
في شرك وهـــو فيـــه قـــد وقعـــا
ومـــالـــك حين رمـــت قلعتـــه
غـــدا مطيعـــا لـــلأمـــر متبعـــا
عنـــا خشـــوعـــا لـــرب مملكـــة
لغير رب السماء مـــا خشعـــا
كـــان مقيما منهـــا على الفلـــك الـــ
أعلى شهـــابـــا بنـــوره سطعـــا
لكنما الشهـــب مـــا تنير إذا
لاح عمـــود الصبـــاح فـــانصـــدعـــا
يـــدفعهـــا طـــائعـــا إليـــك وكـــم
عنهـــا إبـــاء بجهـــده دفعـــا
هـــي التـــي في علـــوهـــا زحـــل
كـــر على وردهـــا ومـــا كـــرعـــا
وهـــي التـــي قـــاربـــت عطـــارد في الـــ
ـــأفق فـــلاحـــا والفـــرقـــديـــن معـــا
كـــان منهـــا السهـــا إذا استرق السمـــ
ـــع أتـــاهـــا في خفيـــة ودعـــا
هضبـــة عـــز لـــولاك مـــا ارتقيـــت
وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فـــرعـــا
مـــا قبلـــت في ارتقـــاء ذروتها
مـــن ملـــك لارقـــى ولا جـــذعـــا
عـــزت على المالـــك الشهيـــد واعـــ
ـــطتك قيـــاداً مـــا زال ممتنعـــا

للأب لو حل خطبها الغدا
محرما لابنه وما شرعا
لازلت محمودٍ في أمورك محمو
داً بثوب الاقبال مدرعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتم لمحمود كآل محمد
متصادقي الأفعال والأسماء
يتلو أبابكر على حسناته
عمر الممدح في سنا وسناء
ويليه عثمان المرجى للعلا
وعلي المأمول في اللألأواء
وتقيل الحسن المجد مجدهم
فهم ذوو الإحسان والنعماء
فرعت لمجد الدين أخوته الذرى
دون الورى في المجد والعلياء
من سابق كرما وشمس سياده
شرفا وبدر دجنة وبهاء
سرج الهدى سحب الندى شهب النهى
أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علي، وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.